

مِرْمَقَاتُ الْحَيَاةِ النَّبَوِيَّةِ

يونيس



تَأَلَّفَ

د. نَائِفِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْيَحْيَى







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين، وخليل
رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأقدم كتابي هذا لكل مُحبٍ لهدي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته، وقد
حرصت على إظهار جوانب التكامل في شخص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر
الأخبار في ذلك مُضمنة بعض الفوائد، ومزجتها ببعض مُلتقطات الأدب، وروائع
الآبيات، وليس لي منها إلا النقل والاختيار، وقد رجعت إلى أصول كُتب السنّة
والسيرة لمحاولة توثيق النص وضبطه، ولم أتوسع في العزو لئلا يطول الكتاب
وتكثر الحواشي، وحاولت ذكر ما صح من الأحاديث، وأما القصص فلم ألتزم
فيها بالصحة، وقد كان الأئمة يتسامحون في مرويات السير والمغازي ما لم
تتضمن حكماً.

قال الإمام عبد الرحمن ابن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ فيما أخرجه البيهقي في المدخل:
«إذا روينا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحلال والحرام والأحكام، شددنا في
الأسانيد، وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب، سهلنا في
الأسانيد وتسامحنا في الرجال».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأحاديث الرقائق يحتمل أن يتساهل فيها حتى
يجيء شيء فيه حكم».





وقال في رواية عباس الدوري عنه: «ابن إسحاق رجل تكتب عنه هذه الأحاديث - يعني: المغازي - ونحوها، وإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا، وقبض أصابع يديه الأربع»^(١).

وكنت قيدت النقول التي أوردتها في الكتاب قديماً، وبعضها لم أقيد مرجعه في ذلك الوقت، فما وضعته من كلام بين علامتي تنصيص فهو من نقلي لا من قولي. وطبع أول طبعة عام ١٤٢٧ هـ ثم طبع ثانية، وهذه الطبعة الثالثة تمت مراجعته فيها وتنقيحه وإضافة بعض الفوائد.

وهذا جهد المقل، ومن كان لديه إفادة أو تصويب فليكرمني به مشكوراً على بريدي الإلكتروني drnaifal@gmail.com



(١) ينظر: الكفاية في علم الرواية للخطيب (ص ٣٦٢)، فتح المغيث (١ / ٣٥٠)، النكت على كتاب ابن الصلاح لابن حجر (٢ / ٨٨٨).



﴿ بين يدي المقامات ﴾

لا يزال المؤمن يجتني أطيب الحكم، وجوامع الكلم، وكرائم الأخلاق، وفرائد الآداب، كلما أعاد النظر في سيرة الحبيب ﷺ وأمعن القراءة فيها، فهي بحق مأدبة فضائل، ومائدة شمائل، ينهل منها الكبار، ويتربى على مثلها الصغار، فليس لأحد الاستغناء عنها، عالماً أو متعلماً، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، فهي المعين الصافي، والسبيل الشافي، لكل من أراد الأنس والسعادة والفائدة.

لذا عني بها السلف والأئمة عناية شديدة، فهذا علي بن الحسين رَحِمَهُ اللهُ يقول: "كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن".

ويقول إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رَحِمَهُ اللهُ: "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله يعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها".

ويقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "ولا يجمل بأولي العلم، إهمال معرفة الأيام النبوية، والتواريخ الإسلامية".

وبناءً على ذلك ورغبة في الإسهام في رفقة من رحيق إمام هذه الأمة ونبيها وقائدها، ذكرت إشارات وإلماحات، وإضاءات ومضات، من غير تلك المقامات، التي قامها ﷺ....

أسأل الله أن ينفع بها قارئها وكاتبها... إنه جواد كريم...



﴿ من مقامات النبوة ﴾

لما أردت استِهلال هذه المقدمة وكتابتها، ووضعت قلمي على الورق،
جَرى بِسرعةٍ ومضى بخفّة، يَسْطُر غرامه وأشواقه، وحبه ومودته، ولهفته وحرقته،
وهو يلتفت يَمَنَةً فيرى المحبِّين في لُهاثهم، ويسرة فإذا الغارقون في شهواتهم،
فسَطَر بِمداد الحب حُرُوف الأشواق، وأخذ يدبِّج العبارات، ويصوغ المقامات،
ويصّح بهذه الكلمات

فمن شاء فليذكر جمال بُيُوتِ
سأذكرُ حبي للحبيب محمّدٍ
ومن شاء فليغزل بحُب الرّبابِ
إذا وصف العشاق حُب الحبابِ
ويبدو محيّا لعيني في الكرى
لنفسِي أفديهِ إذا والأقاربِ
وتُدرُكُنِي في ذكره قشعريرةٌ
من الوجد لا يحويه عِلْم الأجانِبِ

إن لكل رسالة من الرسالات وأمةٍ من الأمم أمجاداً وحضارات، ومزايا
ومآثر تتشرف بها وتتبنّى فضائلها، وإن لهذه الأمة مقاماً خاصاً، وشرفاً رفيعاً،
ومناقب متميزة؛ ذاك أنها «توفي وتُتم سبعين أمة يوم القيامة، هي خيرها وأكرمها
على الله عزّ وجلّ»^(١).

بل جعلها الله شاهدةً وشهيدةً على الأمم قبلها، فعلى كل مؤمن أن يحمد
ربه من أعماق قلبه، مغتبطاً مجتذلاً رافعاً أسمى آيات الثناء والمدح والتمجيد،
مبتهلاً إلى المالك الأحَد، قائلاً في صدق وحب ووفاء:

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدتُ بأخمصِي أطأُ الثُرباً

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣/٣٣)، وقال ابن تيمية: حديث جيد. الجواب الصحيح (٢/٢٣٢).



دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَجْعَلَ يَوْمَكَ عِيدًا، وَلِحَظَاتِكَ أُنْسًا، وَحَيَاتِكَ سَعَادَةً فَلْتَكُنْ مَعَ سِيرَةِ وَهْدِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"عَزَفْتَ الْأَقْلَامَ بِسِيرَتِهِ فَكَانَتْ أَرْوَعٌ مَا كَتَبْتَ، وَتَنَاقَلَ الْأَجْيَالُ أَخْبَارَهُ فَكَانَ أَمْتَعُ مَا سَمِعْتُ؛ أُذُنَ الْخَيْرِ الَّذِي اسْتَقْبَلَ آخِرَ رَسَائِلِ السَّمَاءِ لِهَدَايَةِ الْأَرْضِ، خَيْرَ مَنْ مَشَى عَلَى قَدَمٍ، وَخَيْرَ مَنْ أُرْسِلَ لِلْأَمَمِ، وَخَيْرَ مَنْ حَكَمَ وَعَدَلَ، سَبَّحَ الْحَصَى فِي يَدَيْهِ، وَسَلَّمَ الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَشَكَا الْجَمَلَ إِلَيْهِ، وَبَكَى الْجَذَعَ عَلَى فِرَاقِهِ، وَنَبَعَ الْمَاءَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَشَهِدَ الذُّبَّ لِرِسَالَتِهِ، وَكَثُرَ الطَّعَامُ بِبِرْكَتِهِ، وَكَلَّمَهُ ذِرَاعُ الشَّاةِ، وَظَلَّلَهُ الْغَمَامُ، وَحَدَّثَهُ الطَّيْرُ" (١).

وَلَهُ كَمَالُ الدِّينِ أَعْلَى هِمَّةً يَغْلُو وَيُسْمُو أَنْ يُقَاسَ بِثَانٍ
لَمَّا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ زَانَهَا وَعَلَا بِهَا فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ
فَوَجَدَتْ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا وَلَقِيَتْ كُلَّ النَّاسِ فِي إِنْسَانٍ

مَهْمَا أَوْتِيَ الْأَدْبَاءُ مِنْ أَعْنَةِ الْفَصَاحَةِ، وَأَزِمَّةِ الْبَلَاغَةِ، وَجَوَامِعِ الْكَلَمِ، وَبَدِيعِ النَّثْرِ، وَجَزِيلِ الشُّعْرِ، وَرَوَائِعِ النَّظْمِ، وَمَهْمَا تَبَارَتْ الْقَرَائِحُ تَشْدُو أَنَاثِيدَ عَظَمَتِهِ، فَسَتَّظَلَ خَجَلِي أَمَامَ زَكَاءِ سِيرَتِهِ وَصَفَاءِ سَرِيرَتِهِ.

بِرُوحٍ بِأَرْوَاحِ الْمُحَامِدِ حُسْنَهَا فَيَرْقَى بِهَا فِي سَامِيَاتِ الْمَفَاخِرِ
وَإِنْ فَضَّ فِي الْأَكْوَانِ مِسْكَ خَتَامَهَا تَعَطَّرَ مِنْهَا كُلُّ نَجْدٍ وَغَائِرٍ

مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا مَبْعُوثٍ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا وَأَيَّدَ بَايَةَ ثُمَّ ذَهَبَتْ، وَمُعْجَزَةٌ

(١) الزهاد مائة (ص ٧)، وانظر هذه المعجزات في كتاب: دلائل النبوة لأبي نعيم وكذلك كتاب البيهقي في نفس العنوان.





ثم انصَرت، وشريعةٌ ثم نُسخت؛ لكن آيته ومعجزته خالدةٌ تالدةٌ باقيةٌ ما بقي النيران، وما وجد في الأرض إنسان

جاء النّبون بالآيات فانصَرت وجئتنا بحكيم غير مُنصرم
آيائه كلما طال المدى جُدد يزينه جلال العتق والقدم

«جاءت أخلاقه بنسق متكافئ فزَّهده كجُوده، وكرمه كصبره، وشُكره كجَلَمه، وهكذا أرسله الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ليصيغ منظومة الأخلاق الأبدية بأقلام من نور الهداية، ثم أسَّس أول مدرسة لتواضع العظماء، وقف على جُثمان كبرياء النفس يودعه، وغزا الأفئدة بتواضعه، وأخذ مكانه بين البسطاء والضُعفاء»^(١).

كان يخصف نعله، ويحلب شاته، ويكون في مهنة أهله، ويلبس الصوف، ويركب الحمار ويُردف عليه .. ومع هذا فقد ميَّزه الله بكريم الخلال وشريف الخصال، وشرح صدره، وأعلى ذكره.

لما سئلت أم المؤمنين عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** عن عمله في بيته قالت: « كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه » وقالت في حديث آخر: « كان يخيظ ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم »^(٢).

ضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ
وشق له من اسمه ليُجَلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمَّدُ

جمَعَ في شخصه وبين جَنِيهِ أَجَلَّ المقامات، وأسمى المراتب، وأكمل المناقب، فإذا ذُكِرَ العبَاد وتهجُّدُهم فهو إمامُهم، وإذا أُشِيرَ إلى العلماء وفقههم

(١) الزهاد مائة (ص ١٤).

(٢) أخرجهما الإمام أحمد في المسند وصححهما الألباني.



فهو أستاذهم، وإذا امتدح الشُّجعان وبسالتهم فهو قائدهم، وإذا تميَّز الدُّعاة بأسلوبهم فهو قُدوتهم، فله في كُل منقبةٍ أوفر حظ وأكمل نصيب.

فلقد سَرَت مسرَى النُّجوم هُمومه ومَضَت مُضي الباترات عزائمه

«لم ينطق إلا عن ميراثِ حكمةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويُسرَّ بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيَّن حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

لم تسقط له كلمة، ولا زلَّت به قَدَم، ولا بارت له حجة، ولم يُقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل بيدُ الخطب الطَّوال بالكلم القصار، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصدق.

ثم لم يسمع الناس بكلامٍ قط أعمَّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً من كلامه»^(١).

يا أيُّها الأُمي حَسْبُكَ رُتَبَةٌ في العِلْم أن دانت لك العُلَماء

وُلِدَ فلمَّا ظهر للدُّنيا أضواء الكون، واستبشر التاريخ، وسعدت البشرية بمولده، ورأت أمه نوراً خرج منها فأضياء مدائن بُصرى والشَّام^(٢)، فلله ما أجمل تلك اللحظات، وما أجل ذلك اليوم الذي ولد فيه

يومٌ يتيه على الزَّمان صَبَاحُه ومَسَاؤه بمحمَّدٍ وضاء

كانت لحظات حياته وأيام ولادته ملاءها البركات والنفحات، فلم تعرف

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢/١٣)

(٢) صححه الحاكم، وقال ابن كثير هذا اسناد جيد قوي «السيرة النبوية» (١/٢٢٩).





البشرية أكمل خلقاً، ولا أنبل خلقاً، ولا أكرم نسباً، ولا أشرف حسباً، ولا أعظم بركةً وصفاً وطهراً وصدقاً منه **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** فقد كانت سيرته نبراساً وضياءً في طريق كل مؤمن، ونوراً وهاجاً في درب كل مسلم، فقد نُقلت بأدق تفصيل وأكمل بيان، وأوضح حال؛ كما قال أحد النقاد الغربيين: "إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس".

وقد شهد بكمال أخلاقه وسمو روحه وصدق لهجته، القريب والبعيد، والموالي والمعادي، والموافق والمخالف، فدُونك صُورٌ من أقوال بعض المستشرقين الذين ما ملَكُوا أنفسهم أمام تلك العظمة التي بهرتهم إلا أن يسطروها بأقلامهم: **يقول أديب أيرلندا برناردشو:** «ما أحوَجنا اليوم إلى رجل كمحمد يحل مشاكل العالم وهو يحتمي فنجاناً من القهوة».

ويقول السير موير: «لم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد منه منالاً وقت ظهور محمد، ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تم كالذي تركه عند وفاته».

وقال ليونارد: «إن كان رجل على هذه الأرض قد عَرَفَ الله، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له، وفني في خدمته بقصدٍ شريف ودافع عظيم، فإن هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبي العرب».

وفي دائرة المعارف البريطانية: «لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة».

وقال بورزورث سميث: «إن محمداً بلا نزاع هو أعظم المصلحين».

فمحمداً صلى الله عليه وسلم الذي هو في نظر المسلمين خاتم الأنبياء والرسل، ونبي الرحمة والزكاء والنبيل، هو في نظر المفكرين من الملل الأخرى أعظم



المُصلِحين، فلا يحقُّ لنا أن نتحدّث عن سيرة رجلٍ دون أن نشرف حديثنا به أولاً؛ فتَنقُل في بسّاتين هذا الكتاب لتستَنشِق من عيبرِ مقاماتِهِ، ولتَقْطِف من زهر أخلاقه وحياته، ولتَتَذوق من معِين شمائله وصفاته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ولا يسعني إلا أن أَرَدِدَ قول حسان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**:

ما إن مَدَحْتَ مُحَمَّدًا بمِقالتي لكن مَدَحْتَ مِقالتي بِمُحمَّدٍ



﴿مِيلَادُ الْحَيَاةِ﴾

مضت الأيام، وانصرمت الأشهر والليالي فأحست آمنه بنت وهب أن شيئاً يتحرك في داخلها وكأن مولوداً يعيش في أحشائها، إلا أن آلام الحمل ومواجهه لم يظهر منها شيء، ولم يبد منها ما يدل على ذلك.

تقول عمته: كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول: ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء، إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي، وربما كانت ترفعني وتعود، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت أنك حملت؟ فكأنني أقول: ما أدري، فقال: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة وبنيتها، وذلك يوم الاثنين، قالت: فكان ذلك مما يقن عندي الحمل^(١).

وعندها وضعت ذلك الطهر وتلك الشمائل، بل وُلدت الحياة بأسرها في أحضان ذلك الطفل الصغير، الذي كانت الدنيا تنتظره ليغير مسارها، ويُنير طريقها، ويخرج من فيها من غياهب الظلمات إلى مشاعل النور والهداية، كل ذلك بإذن الحكيم الخبير.

وعندما وضعته وولده رأت نوراً ساطعاً عظيماً ظهر منها حتى أنار قصور بصرى والشام، كما قال عن نفسه ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»^(٢).

(١) طبقات ابن سعد (١/٩٨)، وينظر: شرف المصطفى لأبي سعيد الخركوشي (١/٣٥٠)

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند من عدة طرق، وصححه محققوا المسند، ورواه الطبري والحاكم وصححه.



دَبَّ هذا الطفل الصغير على الأرض، وجعل يبحث عن ثدي يلتقمه كغيره من الصبية ليسكن جوعه ويذهب ظمأه .. ولكن تلك الأم التي يملؤها الحنان، ويحيط بها البشر، لم يكن فيها ما يسد رمقه، وفي هذه الأثناء جاء نسوة من بني سعد يلتصقن الرضعاء يرضعنهم ومن بينهن امرأة تسمى حليلة، فلندع القلم بيدها لتسطر لنا حكايتها وقصتها مع ذلك الغلام فتقول: «خرجت من بلدي مع زوجي وابن لي صغير أَرْضَعُهُ مع نسوة من بني سعد نلتصق الرضعاء، وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، فخرجت على أتان لي قمرء، معنا شارف^(١) لنا والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني وقد أدمت^(٢) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأة كانت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فأخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت: فذهبت إليه فأخذته، فوالله ما هو إلا أن جعلته في حجري فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن، فشرب وشرب أخوه حتى روياء، وقام زوجي إلى شارفنا من الليل، فإذا بها حافل، فحلب وشربنا حتى روياء، فبتنا شباعاً رواء وقد نام

(١) الأتان: أنثى الحمار، والشارف: الناقة المسنة.

(٢) أي: حبستهم وأخرتهم من ضعفها وهزالها.





صبياننا، قال أبوه: والله يا حليلة ما أراك إلا قد أصبت نسمةً مباركة، ثم خرجنا، فوالله لقد خرجت أتانى أمام الركب قد قطعتهن حتى ما يتعلق بها أحد، فقدمنا منازلنا من حاضرة بني سعد بن بكر، فقدمنا على أجذب أرض الله، فوالذي نفسي بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم ويسرح راعي غنمي، فتروح غنمي بطاناً لُبْنًا حُفْلًا، وتروح أغنامهم جِيعًا، فيقولون لِرعاتهم: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليلة؟ فيسرحون في الشَّعب الذي يسرح فيه راعينا، فتروح أغنامهم جِيعًا ما بها من لبن، وتروح غنمي لُبْنًا حُفْلًا.

وكان صلى الله عليه وسلم يشب في يومه شَبَاب الصبي في الشهر، ويشب في الشهر شَبَاب الصبي في سنة، قالت: فقدمنا على أمه فقلنا لها: ردي علينا ابننا فإننا نخشى عليه وباء مكة، قالت: ونحن أضن شيء به مما رأينا من بركته، قالت: فرجعنا به فمكث عندنا شهرين، فبينما يلعب وأخوه جاءه رَجُلان فشقا بطنه، فخرجنا نشتد فأتيناه وهو قائم مُنتَقِع اللون، فاعتنقه أبوه وأنا، ثم قال: مالك يا بُني؟ قال: أتانى رَجُلان فأضجعاني ثم شقَّا بطني، فوالله ما أدري ما صنعًا، فرجعنا به، فقال أبوه: يا حليلة ما أرى هذا الغلام إلا قد أُصِيب، فانطلقى فلنُردّه إلى أهلِه، فرجعنا به إليها فقالت: ما ردكما به؟ فقلت: كفلناه وأدينا الحق ثم تخوفنا عليه الأحداث، فقالت: والله ما ذاك بكما فأخبراني خبركُما، فما زالت بنا حتى أخبرناها، قالت: فتخوفتم عليه؟ كلا والله إن لابني هذا شأنًا، إني حمَلت به فلم أحمل حملاً قط كان أخف منه ولا أعظم بركة، ثم رأيت نوراً كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت لي أعناق الإبل ببُصرى، ثم وضعته فما وقع كما يقع الصبيان، وقع واضعاً يديه بالأرض رافعاً رأسه إلى السماء، اترُكاه والحقاً بشأنكُما" (١).

(١) رواه أبو يعلى والطبراني وابن حبان، وقال الذهبي: إسناده جيد. تاريخ الإسلام (٤٦/١)



بأبي هو وأُمِّي فلقد كان حمّله خيراً وولادته نوراً، وصباه بركة، وشبابه أمانة
وصديقاً، ورسالته هُدىً ورحمة، فما من لحظة من لحظات حياته وسني عمره إلا
وهي النور والخير والبركة، ثم هو مع ذلك وهو في أحشاء أمه يموت والده فيخرج
إلى الحياة يتيماً، ويرضع اليتيم منذ الولادة، ثم لم يكمل السادسة حتى فقد أمه، ثم
يتبع ذلك جده فيموت وهو في الثامنة، لكن الله بلطفه ورعايته حفظه ورعاه
وَإِذَا الْعِنَايَةُ لَا حَظَّكَ عُيُونُهَا نَمَّ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانٌ

إن اليتيم ليس صفة نقص إذا كان الشخص واثقاً، وليس جانب ضعف إذا
كانت النفس سامة تواقّة، وليس إشارة عجز إذا كان الله بلطفه قد أحاط به، فقد
كان كثير من الأنبياء أيتام، وكذلك الكثير من الأئمة والأعلام، كأمثال الشافعي
ومالك وأحمد؛ فهذا اليتيم لم يكن حائلاً بين رسول الله ﷺ وبين
تطلعاته وهمته، فها هو ابن الثمان سنين يأتي إلى جده في الحجر، وكان يوضع
لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له،
وكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه
فيقول جده: دعوا ابني، فيمسح على ظهره ويقول: إن لابني هذا شأنًا^(١).

وفي أحد الأيام وعندما كان في صباه في الرابعة من عمره أصاب قريشاً جدبٌ
وقحطٌ حتى هزلت مواشيهم وسُغبت بطونهم، فخرجوا يستسقون فقال بعضهم:
اعتمدوا اللات والعزى!، وقال آخرون: اعتمدوا لمناة الثالثة الأخرى!، فبينما هم
كذلك إذ أقبل أبو طالب معه ابن أخيه ذاك الصبي فالتزم به الكعبة، وألصق ظهره
بها، ثم أخذ بأصبعه فأشار به إلى السماء وما فيها قزعة، فأقبل السحاب من ها
هنا وهأهنا وأغدق وأغدودق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي والبادي،

(١) أخرجه ابن إسحاق والبيهقي وأبو نعيم، ينظر: الخصائص الكبرى للسيوطي (١/١٣٨)



وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيضٌ يُستسقى الغمام بوجهه ثُمّال اليتامى عصمةٌ للأراملِ
يلوذُ به الهلاكُ من آل هاشمٍ فهم عنده في نعمةٍ وفَضائلٍ^(١)

ولما ناهز الحلم وبلغ ثنتي عشرة سنة خرج مع عمّه أبي طالب في تجارة إلى الشام، فلما بلغ بصرى ونزلوا بها، وكان فيها راهب من أعلم النصارى في صومعة له يُقال له «بُحيرا»، فصنع بحيرا لهم طعاماً ودعاهم ولم يكن من عادته ذلك، فقال له أحدهم في تعجب: يا بحيرا ما كنت تصنع هذا فما شأنك؟ فأخذ بيد النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وقال: لأجل هذا سيد العالمين ورسول رب العالمين! فقالوا له: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أقبلتم من العقبة لم يبق شجرة ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإنا نجده في كتبنا؛ وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به الشام فردّه خوفاً عليه من اليهود^(٢)؛ فتأمل خطرهم على الإسلام حتى قبل قيامه وقبل الرسالة.

ثم شبَّ وكبر وتزوج بخديجة، وكان لا يأتي ما يأتيه قومه من الأصنام وعبادتها والخمر وشربها، ثم حصل شيء غريب وحادث عجيب وهو «مقام الرسالة».



(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٥٢-٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة والترمذي، وقد اختلف في صحته، فصححه بعض المتأخرين كالألباني.



﴿مَقَامُ الرِّسَالَةِ﴾

في إحدى ليالي الصيف القائضة شديدة الحر، حيث كانت تُسيطر على فجاج مكة وسُهلها رمضاء شديدة التوهج والحرارة، وكان أهل مكة في هذه اللحظات كلُّ منْهمك في عمله، كان يوماً كسابقه من الأيام بالنسبة لأهل مكة ورجالها، فلا جديد ولا غريب في هذه الأثناء، ولكن البشرية كُلها، والكُون بأسره يتطلع إلى ذلك الجبل الشاهق الطويل، الذي سَيُعقد فيه أعظم لقاء، وأجل حدث، أتدري من الأمر بهذا اللقاء؟ وهل تعرف تلك الشخصيات التي ستلتقي فيه؟ وهل تعلم شيئاً عن المادة والسبب الذي عُقد من أجله؟ إنها أسئلة كثيرة تنهافت إلى الذهن، وتتسابق إلى الفؤاد لتبحث لها عن إجابة في واقع الحس المُشاهد.

لقد كان الأمر بهذا اللقاء في ذلك الزمان وفي تلك البقعة من المكان هو «الله»، وأما شخصيات اللقاء فهي بين أزكى وأشرف رجل من البشر، وأكرم وأجل مخلوق من الملائكة.

إنه بين روح القدس جبريل الوسيط بين الله ورسله، وأعظم الملائكة خلقاً وأقربهم من الله، وبين محمد بن عبد الله سيد الثقلين وخير المرسلين وخاتمهم.

كان النبي ﷺ مُتحنثاً في غار حراء في جبل النور المجاور لمكة فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ! فأخذه فغطه وضمه ضمة شديدة ثم قال: اقرأ ثلاثاً.. ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (١)

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨١) مسلم (١٦٠).





(سورة العلق، الآيات ١-٥)، فعند ذلك خرج رسول الله ﷺ مُسرِعاً إلى بيته يَرْجف فؤاده، فلقي زوجته خديجة فحاورته، ثم انطلقت به لورقة بن نوفل ابن عمها فكلّمته في ما حدث لرسول الله ﷺ وكان شيخاً كبيراً قد كتب الإنجيل وعرفه، فأخبرها أن هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى، وأعلمه أن ذلك علماً على بُوته، وجلّى له ما يحصل لأهل هذه المقامات من البلاء، وأنهم يعادون ويخرجون من ديارهم، وتحارب هذه الدعوة وهذه القيم التي يحملون، ثم تمثل ورقة بعد ذلك بأبيات يخاطب بها خديجة فيقول:

إِنْ يَكُ حَقًّا يَا خَدِيجَةُ فاعلمي	حديثك إيانا فأحمد مُرسَلُ
وجبريل يأتيه وميكَال معهما	من الله وحي يشرُح الصدر مُنزلُ
يفوز بها من فاز فيها بتوبة	ويشقى به العاني الغوي المضللُ
فُسبحان من تهوي الرياح بأمره	ومن هو في الأيام ما شاء يفعلُ
ومن عرشه فوق السماوات كلها	وأقضاؤه في خلقه لا تُبدَلُ

وذَهِبَت الأيام بعد ذلك اللقاء، فبينما رسول الله ﷺ ذات يوم في غار حراء قد تحنّث فيه شهراً، فلما قضى تعبده ونزل من الغار واستبطن الوادي ونزل فيه سمع صوتاً يُناديه، فالتفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً! ثم نظر أمامه وخلفه فلم ير شيئاً! ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا جبريل على عرش في الهواء، بين الأرض والسماء، فخاف ورعب من ذلك الموقف وهلع من ذلك الجسم العظيم فأتى تَرَجِفُ بواذره إلى بيته فدخل على زوجته وهو يقول: دَثّرني دَثّرني فغطوه بلحاف وصبوا عليه ماءً.^(١)

(١) أخرجه البخاري (٤٦٤) مسلم (٢٥٧٠).



وفي تلك اللحظة في ذلك الخوف نزل الوحي السماوي، والأمر الرباني من الله عَزَّجَلَّ بتبليغ الرسالة وتحمل أعباء الدعوة: ﴿يَأَيُّهَا الْمَدِينُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ﴾ (١) ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۚ﴾ (٢) ﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ ۚ﴾ (٣) (سورة المدثر، الآيات ١-٤).

لقد قام صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر خير قيام، فبدأ بزوجه فكانت أول من آمن به وصدق، وفي هذا بيان تأثير المرأة في الإسلام، وذلك أن أول من صدق بالرسالة، وتابع وواسى الرسول صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها.

ثم عرض ذلك على أبي بكر فما تردد ولا تلكأ، بل سرعان ما آمن وصدق وأزر النبي صلى الله عليه وسلم، وقام معه يدعو إلى الله، فما ذهب على إسلامه بضعة أيام حتى أسلم على يديه ستة من العشرة المبشرين بالجنة، ثم أسلم علي وزيد وبلال، ثم أتى الأمر الإلهي ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٤) (سورة الشعراء، الآية ١٢٤) فقام - صلوات الله وسلامه عليه - على الصفا وهتف بأعلى صوته ليوصل دعوة الله ورسالته إلى كل إنسان، يا صباحاه! يا صباحاه! (١)

فَجَمَعَتْ حَوْلَهُ قَبَائِلُ قُرَيْشٍ وَرِجَالُهَا وَنِسَاؤُهَا، فَجَعَلَ يناديهم قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ، حتى وصل إلى قبيلته فجعل يُنادي بأسماء أعمامه ليرى الناس أنه لا محاباة في دين الله وليبين أنه لا يدعى ولا يستغاث ولا يلجأ إلا إلى الله وحده لا شريك له، وأنه لا نبي ولا ولي ولا وثن يصرف له شيء من الدعاء أو العبادة، وإنما هي حق الخالق على خلقه فيقول: يا عباس عم رسول الله، ويا صفية عمة رسول الله،

(١) قال ابن الأثير: هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، ويسمون يوم الغارة: يوم الصباح، فكان القائل: يا صباحاه، يقول: قد غشنا العدو، وقيل: إن المتقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال، فإذا عاد النهار عاودوه، فكانه يريد بقوله «يا صباحاه»: قد جاء وقت الصباح، فتأهبوا للقتال. النهاية في غريب الحديث (٣/٦-٧)





بل هتف باسم ابنته ومهجة فؤاده فقال: يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار لا أغني عنك من الله شيئاً.^(١)

وفي هذه الأثناء وفي أول مقام يقومه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي أول خطاب يُعلنه على الملأ، وهو يقوم أمام البشرية كلها وهي تتخبط في ظلمات الشرك والأصنام والعصيان، ليدعوها إلى توحيد العبادة لله، وأنه لا معبود ولا مألوه ولا مُطاع بحق إلا الله، في هذه اللحظات الحرجة التي ينتظر فيها رسول الله ردّ الجماهير التي تقف أمامه وتسمع كلامه، يقوم عمه وأقرب الناس إليه، الذي كان من فرحه بولادته أن أعتق أمته عندما بشرته بمولده، فماذا تظن موقفه في هذه اللحظات وأمام هذه الكلمات؟!

قام وهو ينفض التراب من يديه ويقول: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فكان لمقام عمه صدمة مفاجئة، ولكن عمق الإيمان، ورُسوخ المبدأ، وصدق الهم الذي كان يحمله جعلته لا يعبأ بمثل هذه المواقف التي تعترضه وتقف له في طريق تعييد الناس لرب العالمين.

ولك أن تتأمل وتتفكر في حاله بهذا المقام الذي قامه على الصفا، وما حدث له، وكيف أنه قام وحيداً بلا أتباع ولا أنصار ولا أعوان، وبحالٍ بعد ثلاثٍ وعشرين سنة حينما قام في نفس ذلك الموطن وفي ذات البقعة ولكنه هذه المرة أمام ناظرَيْه وبين يديه مائة ألف رجل كلهم يلهجون بالتلبية والوحدانية لله، وكل فرد منهم يستنُّ بفعله ويأتم بتصرفاته، فكيف تحقّق ذلك؟ وكيف وصل إلى هذه الحال؟ وماذا كان بين هذا المقام وذاك المقام من الأحداث الجسام والمقامات العظام؟

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٥) مسلم (٣٤٨).





هذا ما سُنُتَرجَم بعضه في هذه الصَّفحات التي صورت شيئاً من مقاماته،
وبَذَله، وتَضَحَّيته، وتَعَبُّده، ودَعْوته، وشفَاعته، ورَحْمته، وتَرْبِيته، وشَجَاعته،
وعناية الله به.



﴿مَضَى عَهْدُ النَّوْمِ !﴾

مع أول نداءٍ علويٍّ رَبَّانِي ﴿قُرْآنِذِرٌ ٢﴾ ﴿سورة المدثر، الآية ٢﴾، قام عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلم يعرفِ الرَّاحةَ ولم تعرفه، وحمل هم إبلاغ الأمانة التي تعجز عن حملها الجبال الرواسي، فبدأ بأقاربه ومن حوله، ووطن نفسه على تحمل الأذى، واحتمال المكاره، «إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يُنشئ من الأمة المُشركة المُتفرقة الجاهلة أمةً واحدةً مؤمنةً عالمةً، فليصنع كما يصنع البناء: يَضَعُ الْحَجَرُ عَلَى الْحَجَرِ فيكون جِدَاراً، وكذلك فعل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بنى أُمَّةً صغيرةً من ثلاثة، من رجل وامرأة وصبي، من أبي بكر وخديجة وعلي، فكانت نواة هذه الأمة الضخمة التي ملأت بعدُ الأَرْضَ، وكان أسلوباً يخلق احتذاؤه بكل مصلح.

ثم صَارَ الْمُسْلِمُونَ عَشْرَةً، ثم تموا أَرْبَعِينَ، فخرجوا يُعْلِنُونَ الإسلامَ بِمُظَاهَرَةٍ لم تكن عَظِيمَةً بِعَدَدِهَا، ولا بِأَعْلَامِهَا وَهَتَافِهَا، ولكنها عَظِيمَةٌ بِغَايَتِهَا وَمَعْنَاهَا، عَظِيمَةٌ بِأَثَرِهَا، عَظِيمَةٌ بِمَنْ مَشَى فِيهَا، محمد وأبو بكر وعمر وعلي وحمزة، أربعون لولا كرم الله بإرسال محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعاشوا ولما تواتوا منكبين مجهُولين، فلما لامسوه وأخذوا من نُورِهِ، وسَرَتْ فِيهِمْ رُوحٌ مِنْ عَظَمَتِهِ صَارُوا مِنْ أَعْلَامِ الْبَشَرِ، وَأَصْبَحَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَنَاراً لِلسَّالِكِينَ.

فلما كانوا ثلاثمائة خاضوا المعركة الأولى في الدِّفاعِ عَنِ الْحَقِّ، مَعْرَكَةُ بَدْرٍ.

فلما بلغوا عَشْرَةَ آلَافٍ فَتَحُوا مَكَّةَ وَطَهَرُوا الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ.

فلما بلغوا مائة ألف فَتَحُوا الْأَرْضَ!



نعم فتحوها، وفتحوا معها القلوب بالعدل، والعقول بالعلم، فما عرفت هذه الدنيا أنبل ولا أكرم، ولا أرف ولا أرحم، ولا أرقى ولا أعلم منهم^(١).

لقد قامت جاهلية قريش أمامه وواجهوه بالسخرية والأذى، ووقفوا حاجر عشرة في طريق دعوته، وحذروا الناس منه، ووصفوه بأبشع الأوصاف والألقاب، حتى كان الرجل إذا أراد الحج حذره قومه من فتى قريش أن يسخره ويغير قلبه، فهذا الطفيل بن عمرو كان من سادات دوس وعقلائهم يقول: لما قدمت مكة تلقاني رجال قريش وحذروني من محمد وقالوا: إن له قولاً يسخر به الناس، حتى يفرق بين الرجل وولده والمرأة وزوجها، فما زالوا بي يحذرونني حتى وضعت في أذني الكرسف - وهو القطن - لئلا أسمع كلامه فيسخرني!

لكن الله أراد به الخير، فنظر في نفسه وأنه سيد عاقل فطن فجاء فاستمع لرسول الله ﷺ فتابعه وصدقته مباشرة وكان من خلص أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٢).

وهذا أبو لهب يتبعه ويلحقه وهو يدعو إلى الله عزَّجَلَّ ويعرض نفسه في المواسم وفي أسواقِ مِجَنَّة وعُكاظ وذِي المِجَاز فيحثو عليه التراب ويقول: يا أيها الناس إن هذا قد عوى فلا يُغوينكم عن آلهة آبائكم^(٣).

وكانت أم جميل بنت حرب بن أمية تحمِل الشوك في طريقه، حتى إذا خرج تعرَّبه وهي حَمالة الحطب^(٤).

(١) سيد رجال التاريخ للطنطاوي (ص ٥١).

(٢) ينظر في قصة إسلامه: سيرة ابن هشام، ودلائل النبوة للبيهقي، والخصائص الكبرى للسيوطي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٤) ينظر: تفسير الطبري وابن كثير لسورة المسد.





وكان أمية بن خلف يلزمه ويهمزه وهو «الهمزة اللزمة»، وبلغ الأمر أن جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور فألقاه فوقه وهو ساجد.

وكان النضر بن الحارث كلما قام من محله قعد مكانه وحديثهم من حديث ملوك فارس وقال: «حديثي والله أحسن من حديث محمد»^(١).

فلم تؤثر هذه الأحوال كلها في عزيمة، ولم تنقص من إيمانه بدعوته، والصدع بها والثبات عليها، فلما يسوا من رده عن تبليغ هذه الرسالة عن طريق الأذى والسخرية والتهكم والاستهتار، لجؤوا إلى الوسيلة المقابلة لثنيه وصدّه عن دعوته، وهي التي قل أن يثبت أمامها ويصمد تجاهها أحد، وهي وسيلة الإغراء وشراء المبادئ.

فأرسلوا له عتبة بن ربيعة وهو جالس عند الكعبة ليفاوضه، فلما جلس إليه قال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّحت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها. فقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بأدب عالٍ في الحوار وهو يجيبه بكينته مع أنه عدو له مشرك: «قل يا أبا الوليد»، فقال عتبة: إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه!

(١) رجال من التاريخ للطنطاوي (ص ٢٥)، والقصة في سيرة ابن هشام.



«عَجَبًا لقريش! يدعوهم محمد ﷺ ليعطيهم سيادة الأرض وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز، كنوز المال وكنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقیصر، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية النائمة بين جبليين وراء رمال الصحراء؟!»^(١)

فلما فرغ عتبة قال له ﷺ وقد أنصت له حتى انتهى من كلامه: «أفرغت يا أبا الوليد؟» فقال: نعم، فقال: «اسمع»، ثم قرأ عليه سورة فصلت فقام وقد أيس منه.

ولم تنته هذه المحاولات والإغراءات والتهديد، بل جاؤوا إلى عمه أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك سفة أحلامنا، وذم آلهتنا، وعاب ديننا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه.

فدعاه أبو طالب، وأخبره بما قاله سادة قريش ثم قال له: فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن ﷺ أنه خاذله ومسلمه، ولكن هذا لم يجعله يتردد في الإجابة أو يتلكأ في الرد عن ثباته على دعوته، وإنما قال في الحال: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار» فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين^(٢).

(١) سيد رجال التاريخ (ص ٥٩).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٥): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وأبو يعلى باختصار يسير من أوله، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.





فلما رأى صناديد قريش مناصرة أبي طالب لرسول الله ﷺ وعدم تسليمه لهم، اجتمعوا واتفقوا على أن يقاطعوا بني هاشم، فلا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، وحصرهم في الشعب، فجلسوا فيه ثلاث سنوات حتى أكلوا فيها ورق الشجر، وكان الصبيان يتضاغون في الليل من الجوع ما يجد أحدهم ما يأكل، فلما مضت السنون الثلاث بعث الله على صحيفتهم الأرضة، فلحست كل ما كان فيها من عهد لهم وميثاق، ولم تترك فيها اسما لله عز وجل إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم وقطيعة رحم، فأطلع الله عز وجل رسوله على ذلك، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبتني، فانطلق في عصابة من بني عبد المطلب حتى أتوا المسجد، وهم خائفون لقريش.

فلما رأتهم قريش في جماعة أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ برمته إليهم، فتكلم أبو طالب، فقال: قد جرت أمور بيننا وبينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي فيها موثيقكم فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح.

وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها.

فأتوا بصحيفتهم متعجبين لا يشكون أن رسول الله ﷺ يدفع إليهم، فوضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب: قد آن لكم أن ترجعوا عما أخذتم علينا وعلى أنفسكم، فقال أبو طالب: إنما أتيتكم في أمر هو نصف بيننا وبينكم، إن ابن أخي أخبرني، ولم يكذبنني، أن هذه الصحيفة التي بين أيديكم قد بعث الله عليها دابة، فلم تترك فيها اسما له إلا لحسته، وتركت فيها غدركم وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا، فلا والله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا،



وإن كان الذي يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم. فقالوا: قد رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصحيفة، فوجدوا الصادق المصدق **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قد أخبر بخبرها قبل أن تفتح. فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قالوا: هذا سحر ابن أخيك. وزادهم ذلك بغياً وعدواناً. ^(١)

ثم تابعت الأحزان على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذاك العام الذي أطلق عليه عام الحزن، فتوفي فيه أبو طالب عضده وساعده وأعظم الناس مناصرة له، ثم بعده بثلاثة أيام ^(٢) لحقته أول مؤمنة ومصدقة ومناصرة للرسالة، فتوفيت خديجة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** فاغتتم ذلك كُفار قريش فصَبَوْا غضبهم من السخرية والأذى برسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وبأصحابه، حتى كانوا يخرجون بلال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** إلى رمضاء مكة في شدة وهج الظهيرة في حمأة القيض فيجردونه من ثيابه، ويضعون ظهره على الأرض، ويضعون صخرة على صدره وهو يهتف ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ».

ويحكي ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حال صهيب وبلال والمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيقول:
أَحَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوا أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرَوْهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلَّا بِلَالٍ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ. ^(٣)

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمر بسمية وزوجها ياسر وابنيهما عمار وهم

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص ٥٥)، وللقصة رواية أخرى بأن الأروضة أكلت ما في الصحيفة وأبقت ما كان اسماً لله. وقد ذكر القصة ابن هشام في سيرته، وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١/٢١٥)

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه الذهبي في تاريخ الإسلام (١/٢١٧).





يعذبون فلا يستطيع أن يقدم لهم إلا قول: صَبْرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة.^(١)

فلما أيس أبو جهل من ردهم عن دينهم أخذ الحربة فطعن بها سمية في فرجها فماتت، فحازت على وسام «أول شهيدة في الإسلام»^(٢)، وكل ذلك بمرأى زوجها، ولم يهد شيئاً من ثباته وإيمانه، ولم ينقص ذرةً من إرادته وعزيمته.

وفي يوم اجتمع فيه كفار قريش فذكروا ما أصابهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعييه لآلهتهم وسب دينهم، فقام أبو جهل زعيم القوم فأعلن أمام الملاء: أنه قاتل محمداً إن صلى ثانية بجوار الكعبة!

فلما كان الغد اجتمعت قريش في مجالسها ونواديها وكان يوماً مشهوداً وهم ينتظرون تلك اللحظات الحاسمة في هذه القضية التي طالما أرقتهم، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد ثم توجه للحجر فاستلمه، ثم أقبل يصلي، فلما سجد أقبل أبو جهل بصخرة عظيمة في يده فاشرأبت أعناق القوم وخيم الصمت وأطبق على الجميع، وحانت ساعة الصفر، وأصاخ الكون، وانتظر التاريخ نهاية تلك اللحظة ليسطرها في سجل أوراقه، فلما وقف خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه صخرته ورفعها وأراد قذفها انتفض منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده، فقام إليه كفار قريش يقولون: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه فلما دنوت لأقتله عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني!! فذكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ذاك جبريل لو دنا لأخذه»^(٣).

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٨)، وصححه الألباني في تعليقه على (فقه السيرة).

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٩).

(٣) أخرجه ابن إسحاق، والبيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وينظر للاستزادة: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٦٥).



ثم تتابع مشوار الأذى والسُّخْرية حتى مشى أبي بن خلف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعظم بالٍ قد أُرِفَتْ**، فقال يا محمد أترعُم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم؟! ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار!»، فأنزل الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿سورة يس، الآيات ٧٨-٧٩﴾ (١).

وكان أبي بن خلف هذا صاحباً وصديقاً حميماً لعقبة بن أبي معيط، وكان عقبة قد جلس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسمع منه فعلم بذلك أبي فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأت فتتفل في وجهه، ففعل قاتله الله، فأنزل الله فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) ﴿يَتَوَلَّى لَيَتَنِي لَمْ اتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٢٩) ﴿سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩﴾ (٢).

«ولما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مصالوة أهل مكة ودعوتهم، فلم يستجيبوا وآذوه أشد الإيذاء، وحاربوه، وبلغ الأذى غايته، وقد أوصدوا أبواب الهداية عن نفوسهم في طريق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حَرِيص عليهم، وعلى نجاتهم وفوزهم، فلا القريب يرحم، ولا البعيد يستجيب، ولا صاحب الرأي يحمله رأيه ليفاوض هذا النبي الأمي.

(١) أخرجه ابن إسحاق، وينظر للاستزادة: السيرة النبوية لابن كثير (٢/٥٥)، وصحيح السيرة للألباني (ص ٢٠٠).

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/٣٦١).



فماذا يفعل؟ وهو لا يعرف اليأس والإحباط، وهذا شأن الداعية الناجح، كلما أغلق باب فإنه يلج إلى باب آخر، وإذا لم يستجب له شخص بحث عن غيره، وإن أعرضت عنه قبيلة توجه إلى أخرى، وإن طُرد من قرية انتقل إلى ثانية، فلا يضعف أو يتخاذل بل يستمر ويواصل، ولما لم تستجب مكة لهذا النور، ولم تقبل هذه الهداية، وردت أمر الله وندائه، انتقل رسول الله ﷺ إلى الطائف، حيث إنها أقرب القرى إلى مكة

يا طريداً ملأ الدنيا اسمه	وغدى لحناً على كل الشفاه
وغدت سيرته أنشودة	يتلقاها رواة عن رواة
ليت شعري هل درى من طاردوا	عابدوا اللات وأتباع مناة
هل درت من طاردته أمة	هبل معبودها شأهت وشاه
طاردت في الغار من بواها	سؤدداً لا يبلغ النجم مداه
طاردت في البيد من شاد لها	دينه جاهاً أي جاه
سؤدد عالي الذرى ما شاده	قيصر يوماً ولا كسرى بناه

«ذهب رسول الله ﷺ وحيداً بلا خدم، ولا حشم، ولا قافلة، ولا مراكب، ولا موابك، ولا رفاق، إلا الواحد الأحد، ذهب يمشي على قدميه الشريفتين، وهذا والله غاية الجهاد، وغاية البذل والتضحية والعطاء للدعوة والمبدأ الحق، ومن حكمة الله **جَلَّ وَعَلَا** أنه لم يُنزل معه جنوداً من السماء، ولا جيشاً عرمرماً يحميه، ليلقى الأذى بشخصه الكريم، وليكون قدوة لكل داعية، وإماماً لكل مجاهد، ومثالاً لكل عالم، فيدعو ويصبر، ويتحمل ويواصل»^(١) ويعطي في سبيل الله وطاعته ومرضاته ورضوانه ..

(١) سيد رجال التاريخ (ص ٦٠).



فلما وصل إلى الطائف، ودخل على سادة ثقيف لينير قلوبهم بعد ظلامها، وليحيي أرواحهم بعد موتها، فما حُيي بحفاوة، ولا قُوبل بتكريم، بل ما إن عَرَض عليهم دعوته ورسالته حتى قام أحدهم فقال: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الآخر في ازدراء وسخرية: والله لا أكلّمك أبداً، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول لأنّ أعظمَ خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكذب على الله، فما ينبغي لي أن أكلّمك، وقال الثالث: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط! (١)

«فقام صلى الله عليه وسلم ولهيب الحزن في كبده، وحاله تتفطر لها القلوب، أحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها .. تذكره بخديجة وأبي طالب، ودعوة مطاردة، وأتباع تتخطفهم أيدي طغاة مكة، وقلوب أمامه قاسية لا تحمل معنى من معاني الإنسانية .. فلما أراد الخروج من الطائف، وسلك طريق العودة إلى مكة، لم ينته مسلسل الأذى والإهانة بعد، بل أغروا صبيانهم وغلمانهم بمطاردته، فصَفّوا له صفين ورموه وأذلقوا عقبيه بالحجارة، حتى خرج من حدود وربوع الطائف»

فيا لله ما أعظم ذلك الموقف، رسول رب العالمين وخليله، وأشرف مخلوق وأزكى مرسل، يسب ويؤذى، ويدمى ويلاحقه الصبيان، فو الذي نفسي بيده: إن القلم ليعجز عن تسطير ذلك المشهد، وإن اللسان ليعبى أن يجلي تلك التضحية وذلك البذل وذاك الثبات.

خرج صلى الله عليه وسلم كسيراً حزيناً فلم يفق إلا على أبعد من (٥٠) كيلومتراً تقريباً) وذلك في قرن الثعالب (٢).

(١) أخرجه ابن إسحاق، وينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص ٢١).

(٢) وقد اختلف في موضع قرن الثعالب على أقوال، ف قيل بأنه نفس ميقات السيل الذي هو قرن المنازل، ورجحه القاضي عياض وياقوت الحموي، وقيل: جبل في منى أو عرفة، ورجحه الأزرقى والفاكهي، وقيل غير ذلك. ينظر: تحقيق المطالب بمكان قرن الثعالب د. عمر العمري.





وفي هذه الأثناء يرسل الله عزَّ وجلَّ ملك الجبال يستأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يطبق عليهم الأخشبين - وهما الجبلان المطبقان على مكة - فقال وهو يبعث رسالة إلى أمته أن الدعوة ليست عبئاً ثقيلاً على ظهر الداعي يريد أن يرميه، بل هو همٌّ يخالج النفس، ويخالط القلب في إخراج الناس من الظلمات إلى النور: «بل أستاذني بهم لعل الله أن يخرج من أضلاهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»^(١).

«أمرٌ عجيب! الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الحال من الشدة، وفي هذا الموقف الذي يقنط أجلد الرجال بسببه، رأى بادرة قبول للدعوة عند عبد ضعيف يقال له "عدَّاس"، فلم يمنعه كل ما لقي من أن يبلغه دعوة الله، وينصرف إليه، وينسى ألمه وتعبه، فما زال به حتى أسلم!

هذا موقف صغير بالنسبة للرسول العظيم، ولكنه عظيمٌ بالنسبة إلى دعاة البشر في كل تواريخهم، ولا يستطيع باحث أن يلقي في الإخلاص لله في الدعوة ونسيان الذات في سبيلها، موقفاً مثله لرجل آخر غير محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، فطاف بالكعبة وهو في جوار المطعم ابن عدي، وكلما استحكمت الشدة لاح الفرج، وفي آخر ظلام الليل يلوح النور، ومن صدق مع الله فتحت له السبل، ومن توكل عليه كفاه وأغناه، ففي هذه الليالي شرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحال أرفع، ومنزلة أعظم، حيث أُسري به إلى المسجد الأقصى، فأُم النبيين فيه ثم عُرج به إلى السماء، فصعد فوق أطباق السماوات حتى بلغ سدره المنتهى، وفي تلك الحال رأى جبريل - عليه السلام - على صورته التي خلقه الله عليها

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥٩) مسلم (١٧٩٥).



أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكَه
كَتَبَ الْإِمَامُ لَهُمُ وَالْجَمْعُ مُحْتَفِلُ
لَمَّا حَضَرَتْ بِهِ التَّفَوُّا بِسَيِّدِهِمُ
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ
حَتَّى وَصَلَتْ مَكَانًا لَا يُطَارُ لَهُ
وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ
أَعْظَمَ بِمِثْلِكَ مِنْ هَادٍ وَمُؤْتَمِمِ
كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ
وَيَا مُحَمَّدَ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمِ

ثم رجع **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من ليلته تلك إلى مكة، فلما أخبر بما حصل له من الإِسْرَاءِ إلى بيت المقدس جعلوا يسألونه عن أشياء في بيت المقدس، فجلى له الله بيت المقدس، فجعلوا لا يسألونه عن شيء إلا أخبرهم به. ^(١)

وفي غُضُونِ هَذَا التَّعَجُّبِ وَالسَّخَرِيَّةِ أَتَوْا أَبَا بَكْرٍ صَدِيقَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فقالوا له لعله يرجع عن إيمانه: إِنَّ صَاحِبَكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ ذَهَبَ الْبَارِحَةَ لِبَيْتِ الْمَقْدَسِ وَرَجَعَ مِنْ لَيْلَتِهِ! فَقَالَ: أَوْقَدْ قَالَ ذَلِكَ؟! فَفَرَحُوا بِسُؤَالِهِ وَظَنُوا أَنَّهَا فَرَصَتُهُمُ السَّانِحَةُ لِرَدِّهِ عَنْ دِينِهِ وَإِسْلَامِهِ فَأَجَابُوا: نَعَمْ لَقَدْ قَالَ ذَلِكَ.

عندها قال في ثَبَاتٍ وَيَقِينٍ: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأُصدقه ما هو أبعد من ذلك، أُصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة ^(٢).

فَبُهِتُوا وَخَنَسُوا، وَهَذَا اسْتَحَقَّ شَرَفَ هَذَا اللَّقَبِ الشَّرِيفِ «الْصَّدِيقِ» **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وبدأت إرهابات الهجرة بعد ذلك، وسمعت قريش قائلاً يقول في الليل على أبي قيس:

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک وصححه (٣ / ٦٢)، وصححه الألباني.





فإن يُسلم السَّعدان يُصبحَ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لا يَخْشَى خِلافَ الْمُخَالَفِ

فلما أَصْبَحُوا قال أبو سفيان: من السَّعدان؟ سعد بن بكر وسعد تميم؟ فلما كان في الليلة الثانية سمعوا الهاتف يقول:

أَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا وَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْخَزَرَجِينَ الْغَطَّارِفِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِي الْهُدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ
فإن ثَوَابَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهُدَى جَنَّانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ذَاتَ رَفَارِفِ

فقال أبو سفيان: هما والله سعد بن معاذ، وسعد بن عباد^(١)!

بعد هذا التقى النبي ﷺ بالأنصار فأمَّنوا به وصدقوا، فكان لقاء العقبة الأولى والثانية، وأظهروا استعدادهم لاستقباله، ووعدوه بنصرته، فأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا زرافات ووحدانًا، فكان أول من هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ثم تتابع بعده الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين -

وبهذا ابتدأت مرحلة أخرى ورحلة مباركة . . إنها . .



(١) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير (١ / ٢٥ - ٢٦)، وينظر: الاستيعاب (٤ / ١٥٥)، وسير أعلام النبلاء (١ / ٢٧٩).



﴿ رَحْلَةُ النُّور ﴾

لما كثر عدد المسلمين وازدادت أعداد المؤمنين، وقويت شوكة الإسلام خصوصاً بعد مبايعة الأنصار وإسلامهم، أقلق ذلك قريشاً وأقضى مضجعها، كما هو ديدن أعداء الله في كل زمن، فاجتمع الكفر وتآمر الشرك لوأد الإسلام، والقضاء على الرسول الخاتم، فاجتمعوا في دار الندوة من أجل النظر في كيفية القضاء على رسول الهدى وأتباعه.

وبعد مباحثة رأي السوء بينهم قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلدًا، ثم نعطيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك ماذا تصنع، فيرضون بالدية، فاتفقوا على ذلك.

ثم جمعوا أولئك الفتية، وجاء يقودهم أبو جهل حتى وقفوا على باب رسول الله ﷺ، وجعلوا يرقبونه وينظرون إليه من ثقب الباب، وجاء الخطر على أشد صورته وأشكاله، وتآلب أولئك النفر على أكبر جريمة في التاريخ لو تمت، لكن: من كان الله معه لم يضره من كان ضده، ومن حفظه الله فلن تجد عليه سيلاً.

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله ﷺ وثبات أعصابه، وظهر نصر الله لأوليائه، حين فتح رسول الله ﷺ الباب، وخرج يشق صفوفهم لم يشعروا به، وهو يتلوا قول ربه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) (سورة يس، الآية ٩).

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/٩٠)، والبداية والنهاية (٤/٤٤٢).





أدركت قريش الحقيقة بعدما مضى وهاجر مع صاحبه الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وعم الضجيج مكة وضواحيها، وخرج الكفار فرساناً ومشاةً يركضون خيولهم ويعدون في كل ناحية يبحثون عنه، ووضعت قريش الجوائز لمن يأتي به وبصاحبه حين أو ميتين، حتى رصدوا أضخم جائزة لمن أتى بهم وهي مائة من الإبل مقدمة من «**المركز الشرقي لعداء الرسالة المحمدية**»، فتحركت القبائل، وسار الرجال، وبحث الصغار قبل الكبار ليحوزوا قصب السبق في هذه الجائزة.

«ومشى الموكب المحمدي المكون من رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وأبو بكر **إلى الدنيا الواسعة**.. موكبٌ صغير! لكنه أجل من أعظم موكب أحست بوطأته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً، وأبعد غايةً، وأخلص نية، وأعمق في الأرض أثراً، موكبٌ صغير يمشى في الصحراء الساكنة، لا رايات ولا أعلام، ولا أبواق ولا طبول، ولا تصفيق ولا تصفير، ولا جنود عن يمين وشمال.

أشرف الموكب الشريف على المدينة، فأقبلت جموعٌ كالجموع التي خلفوها في مكة، ولكن تلك للشر، وهذه للخير، وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الإسلامي، كل ما قبلها ظاهره الهزائم، وما بعدها إنما هو نصر إثر نصر»^(١).

وها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة، وقد خرج الأنصار يستقبلون محمداً **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ولو استطاعوا من الحب لفرشوا له الطريق بقطع أكبادهم حتى يمشي عليها.

(١) سيد رجال التاريخ (ص ٦٢).



أَقْبِلْ فَتِلْكَ دِيَارُ طَيِّبَةٍ تُقْبَلُ تُهْدِيكَ مِنْ أَشْوَاقِهَا مَا تَحْمَلُ
الْقَوْمُ مُذْ فَارَقَتْ مَكَّةَ أَعْيُنُ تَأْبَى الْكَرَى وَجَوَانِحُ تَمَلَّمُلُ

ولما دخلا المدينة طفق الناس يسألون: أيهم رسول الله؟ لا يعرفونه، لأنه لم يكن يتميز عن غيره بلباس أو هيئة، بل كان يلبس ما يلبس الناس، ويأكل ما يأكلون.

ولقد كان في أصحابه الأغنياء الموسرون، ولكنه أحب أن يعيش بسيطاً، وأن يموت عزيزاً

لبسَ المَرْقَعِ وَهُوَ قَائِدُ أُمَّةٍ جَبَتِ الْكُنُوزَ وَحَصَلَتْ أَغْلَالُهَا

«لقد مشى محمد ﷺ من الغار إلى مكة، ثم مشى من مكة إلى المدينة، ثم مشى أصحابه وأتباعه يحملون العدل والعلم والإنسانية إلى الشام، ومشوا إلى العراق، ومشوا إلى مصر، وبلغوا أقصى المشرق وأقصى المغرب، ونصبوا راية الإسلام على روابي الصين، وعلى بطاح فرنسا، ومشوا شمالاً وجنوباً حتى ملؤوا الأرض رجالاً وعدلاً ونوراً وفضائل وأمجاداً، وكانوا خلاصة البشر، فأحنوا الرؤوس لذلك الرجل الذي دخل المدينة لا يحف به موكب، ولا يحرسه جند، ولا تلوح فوق رأسه راية، ولا يلمع على هامته تاج، ولا يقرع عند رأسه طبل، ولكن تحف به الملائكة، وترفرف فوقه رايات الإيمان والقرآن، ويلمع على جبينه نور النبوة، ويحرسه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» (١).

دخل ﷺ المدينة فصار النساء والصبيان يركضون ويهتفون: الله أكبر الله أكبر، جاء محمد جاء رسول الله، وثار بنو النجار إليه وأتوه وهم متقلدوا

(١) سيد رجال التاريخ (ص ٨٢).





أسلحتهم، فجعل لا يمر بحي من أحياء الأنصار إلا قالوا: هلم يا رسول الله إلى العدد و العدة، والعزة والمنعة، فيقول: دعوها - يقصد ناقته - فإنها مأثورة، فلما مر ببني النجار خرج فتيات صغيرات ينشدن واصفات جبهن ومحبة جوار النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لهم فيقلن:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبِّدًا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فوقف عندهن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وقال في تواضع وحنو: الله يعلم إني لأحبكن^(١) ثم مشت به ناقته حتى بركت به في مكان مسجده، فأتى أبو أيوب الأنصاري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فأخذ متاع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وحمله إلى بيته، فكان أول عمل عمله هو بناء مسجده وغرف أزواجه، راسماً في أذهان أصحابه عظم العبادة في الإسلام، مؤكداً على أن مشاعل الهداية تنطلق من بيوت الله، «لا جرم إن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، ففيه تُوحَّد الصفوف، وتُهذب النفوس، وتُوقظ القلوب والعقول، وتُحل المشاكل، وتظهر فيه قوة المسلمين وتماسكهم، ولقد أثبت تاريخ المساجد في الإسلام أنه انطلقت منه جحافل الجيوش الإسلامية لعمارة الأرض بهداية الله، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت، وهل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وسعد وأبو عبيدة، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي؟

(١) أخرجه ابن ماجه، واختلف في صحته، وصححه من المتأخرين الألباني.



وميزة أخرى للمسجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسبوع كلمة الحق مدوية مجلجلة على لسان خطيبه، في إنكار منكر، أو أمر بمعروف، أو دعوة إلى خير، أو إيقاظ من غفلة، ويوم يعتلي منابرها ويؤم محاربيها دعاة أشداء في الحق، علماء بالشريعة، مخلصون لله ورسوله، ناصحون لأئمة المسلمين وعامتهم، يعود للمسجد في مجتمعنا الإسلامي مكان الصدارة، ويعود ليعمل عمله في تربية الرجال، وإخراج الأبطال، وإصلاح الفساد، ومحاربة المنكر، وبناء المجتمع على أساس من تقوى الله ورضوانه، وذلك عندما تحتل هذه الطليعة الطاهرة من شبابنا المؤمن العالمية بدين الله، المتخلقة بأخلاق رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** منابرهِ وأرجاءه^(١).

بدأ العمل بعمارة المسجد والحُجُرات وكان الصحابة كاليد الواحدة، وكالساعد للمرفق يشده ويؤازره، وكان في مقدمة العاملين في هذا البناء هو محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وهو يرتجز:

اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

والصحابه يعملون ويرتجزون فيقولون:

لِنَنْقَعِدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمَضْلُ^(٢)



(١) السيرة النبوية لمصطفى السباعي (ص ٨٥).

(٢) أخرج الخبر والبيت الأول: البخاري (٦٠٥١)، ومسلم (١٨٠٤)، والبيت الثاني عند ابن هشام في السيرة.



﴿العناية الإلهية﴾

في لحظات عصيبة، وساعات حزينة، وزفرات من الآهات والتوجعات تركتها وخلفتها معركة بدر الكبرى، التي سحق فيها معسكر الإيمان وكتائب الرحمن غطرسه وكبرياء قريش، فلا تسَل ولا تحدث عن مدى أثر تلك الصدمة والفجعة في قلوبهم، وفي لحظات الأنين وحر نار المصيبة، اجتمع اثنان من سادات قريش تحت ميزاب الكعبة، في هدوء وسكون الليل الذي تطيب فيه نفثات التشكي، ويُلقي فيه فيض الهم والألم، كانا يتذاكران ويتحدثان فيما أصيبوا به من فقد أشرفهم، ومقتل ساداتهم، وكسر شوكتهم، فقال عُمر بن وهب وكان من شجعان قريش: والله لولا ديني علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فقال صفوان بن أمية - وكان قد قُتل أبوه وأخوه في معركة بدر -: علي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء وأعجز عنهم، ففرح عمر واستبشر وقال لصفوان: فاكتم عني شأني وشأنك.

ثم انطلق عُمر لبيته وأخذ سيفه وشحذه سماً حتى يبلغ أثره، ويتمكن بثقة من القتل، وركب ناقته مُسرِعاً متعجلاً إلى المدينة يريد أمراً ويريد الله غيره، فلما دخل المدينة أتى مسجد رسول الله ﷺ فأناخ ناقته عند بابه، وكان لعمر ابنٌ قد أُسر في بدر، فكان يتذرع أنه جاء لفك أسرهِ، فلما أناخ رآه عمر بن الخطاب فاروق الأمة، وكان في جماعة من الصحابة يتحدثون عن كرامة الله لهم في بدر، فقام مسرعاً إليه - ووهج الفراسة يشتعل في عينيه -، فدخل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا عدو الله عمر قد جاء متوشحاً سيفه،



فقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: أدخله عليّ.

فأقبل إلى عمير فلبّيه بحُمالة سيفه فأدخله، وقال لفتية من الأنصار: ادخلوا عند رسول الله واحذروا عليه من هذا الخبيث.

وفي هذه الأثناء كان صفوان بن أمية يقول لأهل مكة: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان يخرج كل يوم يتلقى الركبان ويسألهم عما استجد من الأخبار، فلما دخل عمير على رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: أنعموا صباحاً. فقال النبي - صلوات الله وسلامه عليه -: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسّلام تحية أهل الجنة». ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟! فقال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «فما بال سيف في عنقك؟» فقال عمير: قبّحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً يوم بدر؟ فقال: «اصدقني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القلب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليّ وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا نكذبك يا رسول الله بما كنت تأتينا من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان! فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا السياق ثم تشهد شهادة الحق. فقال النبي الكريم **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «فقهوا أخاكم في



دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»^(١).

فعاد هذا الغيظ وذلك الحنق والغضب، رحمةً وأمنًا وسلامًا، ورجع ذلك العدو داعيًا إلى الله عزَّجَلَّ محملاً بالبشر والنور والقرآن، فلما علم صفوان أقسم بالله لا يكلمه ولا ينفعه بنفع أبداً.

فلما وصل عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يده بشر كثير. وإذا العناية لاحظتكم عُيونها نم فالحوادث كُلُّهنَّ أمانٌ



وفي معركة أحد، أتى عبد الله بن شهاب الزهري وكان من فرسان قريش فجعل يصُول ويَجُول وهو يقول: دلوني على مُحَمَّد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جانبه، ما معه أحد، ثم جاوزه ولم يعلم به ولم يره، فعاتبه في ذلك صفوان وهو يرى أنها فرصة نادرة، فسيفَّ صارمٌ، وفارسٌ شجاعٌ، ومحمد خالٍ ليس معه أحد، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك^(٢).

ومن يكن الإله له حفيظًا فحاشا أن يُضَيَّعهُ الإله

ونعيش في هذا الحدث مع ألمع أناس سطروا أقبح الأمثلة وأبرز الوسائل في الخيانة والغدر، فتاريخهم حافل بخياناتهم وغدرهم، وكذبهم وبهتانهم، فهم أعلام هذا الميدان، فلا مسابق ولا مجاري لهم في ذلك، ولعلمهم سبقوا إلى

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧ / ٥٨) مرسلًا، وقال الهيثمي: إسناده جيد، وينظر: السيرة

النبوية لابن كثير (٢ / ٤٨٨). سيرة ابن هشام ت السقا (٢ / ٨٢)

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢ / ٨٢)، وينظر: سير أعلام النبلاء (١ / ٤١٣).



الذهن فلا أسبق منهم في هذا المجال.

وبداية القصة أن عمرو بن أمية الضمري وكان صحابياً عداءً لا يسبق، خرج

من المدينة فلقي رجلين نائمين فقتلتهما، وظنهما مشركين ولم يعلم بإسلامهم، فجعل رسول الله ﷺ يجمع المال لديتهما، فأتى إلى يهود بني النضير ليعينوه في الدية وكان ذلك من بنود المعاهدة التي عاهدهم عليها، فلما دخل عليهم وجلس معهم فأخبرهم لما أتى إليه فأبدوا استعدادهم وتأييدهم وقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب دار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب لهم،

فتآمروا على قتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، فيصعد فيلقوها على رأسه فيشدخه بها؟ فقال أشقاهم وهو عمرو بن جحاش: أنا. فقال أحد عقلائهم وهو سلام بن مشكم: لا تفعلوا فوالله ليُخبرن بما همتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، ولكن إبليس جثم على قلوبهم فأبوا إلا إمضاء خطتهم، وقربت ساعة التنفيذ، وأخذ عمرو الرحى، وتأهب ليقوم بأداء دوره ومهمته، ووجم اليهود انتظاراً لما سيحدث، وترقباً لما ستنتهي عليه هذه الخطة الماكرة .. وفي هذه اللحظة الفاصلة نزل روح القدس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الحبيب ﷺ يخبره بما هم به القوم من الغدر، فنهض مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه وقد فجأهم قيامه وذهابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر! فأخبرهم بما همتم به اليهود.





ثم قدم عليهم بجُند الله في جيش تحفه الملائكة، ويحيط به الأبرار، ويؤيده الله، فزلزلت حصونهم هيبَةً ورعباً حتى نزلوا على أمر رسول الله ﷺ فأجلاهم من المدينة^(١).

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ فِي جَلَالَتِهِ فِي مَوَكِبٍ حِينَ تَلْقَاهُ فِي حَشَمٍ
عِنَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدَّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطَمِ

وهذا شَيْبَةُ بن عُثْمَانَ بن أَبِي طَلْحَةَ يقول: ما كان أحد أبغض إليّ من رسول الله ﷺ وكيف لا يكون كذلك وقد قتل منا ثمانية كل منهم يحمل اللّواء، فلما فتح الله مكة آيست مما كنت أتمناه من قتله، وقلت في نفسي: قد دخلت العرب في دينه فمتى أدرك تأري منه؟!

ثم قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثار منه، فأكون أنا الذي قمت بثار قريش كلها. وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته، فكنت مرصدا لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوده، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه، والتفت إلي رسول الله ﷺ فنأدى: «يا شيب، ادن مني». فدنوت فمسح صدري ثم قال: «اللهم أعذه من الشيطان». قال: فوالله لهو كان ساعئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان بي.

ثم قال: «ادن فقاتل» فتقدمت أمامه أضرب بسيفي، الله يعلم أنني أحب أن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٤٤)



أقيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فكروا كرة رجل واحد، وقربت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها، فخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه، فدخلت عليه، ما دخل عليه غيري، حباً لرؤية وجهه وسروراً به، فقال: «يا شيب، الذي أراد بك الله خير مما أردت بنفسك».

ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم أكن أذكره لأحد قط. قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، ﷺ، ثم قلت: استغفر لي يا رسول الله، فقال: «غفر الله لك»^(١).

وفي غزوة تبوك كان الجيش الإسلامي يسير في شدة حرارة الجو، وفي جهد ومشقة وجوع، حتى كانوا يستظلون بأيديهم من حرارة الشمس، وكانوا إذا نزلوا وادياً تركوا الشجرة العظمى لرسول الله ﷺ ليستظل بها، ولو استطاعوا أن يحجبوا أشعة الشمس عنه بأيديهم لحجبوها، فأتى رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة لتقيه حر الظهيرة والقائلة، فنزع ثوبه وبقي في إزار ورداء، وعلق السيف عند رأسه ونام، فجاء رجل مشرك فظ غليظ يتربص الدوائر برسول الله ﷺ فاغتنم هذا الموقف، فرسول الله نائم، وليس عنده أحد من أصحابه، وسيفه معلق، فاخترط تلك اللحظة وبخفة سيفه وأيقظ الرسول ﷺ، فلما فتح عينيه وإذا بلمعان السيف يكاد يخطف بصره، فقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال وهو سيد المتوكلين: «الله» فاهتز الأعرابي وانتفض وسقط السيف

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٥٧)، وبنحوه البيهقي في الدلائل وذكر أن له شاهداً.





منه، ثم أخذَه عليه صلوات الله وسلامه فقال: «من يمنعك مني؟» فقال: كن خير
أخذ يا محمد، فعفا عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ^(١)

يا مادحاً تبّعاً أو سيف ذي يزن	دعهم وخل بني شدّاد في إرم
دع عنك كسرى ومن حازوا جوائزه	وكل أصيد أو ما قيل في هرم
واكتب على مفرق التاريخ رائعة	من القريض فدتك النفس من قدم
وامدح بها أحمد في كل قافية	واملاً بها في قوافي الشعر من حكم



(١) ينظر: الثقات لابن حبان (١/ ٢١٧)، وأسد الغابة (٢/ ٢٠٠).



﴿مَقَامُ التَّربِيَةِ﴾

قبل أن تتصفح هذا المقام، وقبل أن تبهر في كلماته ومقاصده، أجل فكرك واسبح بخاطرِك، واسترجع ذكرياتِك وذاكرتك وحياتِك، ثم استخرج من ذلك الكم الهائل، والعدد الضخم من البشر الذين جمعتك بهم موافقات الحياة وأيام الدنيا، ثم عليك بعد هذا أن تصفي تلك الوجوه وتتقي منها أبرز شخص ورجل جمعك به لقاء في هذه الحياة، وعش لحظات في سر إعجابك به في أخلاقه وسُمو روحه، وفي عذوبة منطقه، فلن تجد من خلال تلك الأعداد التي استخلصت منها ذلك الرجل مع كثرتها ووفرته رجلاً جمع خصال الحمْد، ومزايا الخُلُق، وعذوبة المنطق، وفصاحة اللسان، ولين الجانب، وبساطة التواضع، وسُمو الرُّوح، ونبيل الغاية، وإخلاص العمل، كما اجتمعت لدينا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

هو أمة الأخلاق شيدت فيه من كَرَمٍ وَلُطْفٍ لئلاَّ حَبَاه

ولن تجد في تلك المحاضن والمدارس منهج تعلم، وخطة عمل، وجلالة هدف، وصدق انتماء، كما كان في المدرسة المحمدية التي خرَّجت الأبطال الفاتحين، والقادة الميامين، والدعاة المخلصين، والأسخياء الباذلين، والأعلام الصادقين، فقد كانت بحق تصفية روح، وتهذيب خلق، وتربية نفس، وتنمية مهارة في كل ما يخدم هذا الدين ويرضي رب العالمين.

وإذا علمت بأن المعلم هو محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والمساعد هو أبو بكر وعمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، وصاحب الخزينة بلال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وكامن السر حذيفة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، والداعم عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، والفدائي علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، والتلاميذ سعد وطلحة ومضعب والزبير وأسيّد وأنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، والمكان والمدرسة في مسجد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.





لقد بنيت على تقوى من الله ورضوان، فلو اجتمعت جامعات الدنيا وأساتذة العصر وعباقره العالم، على أن يخرجوا مثل تلك القيم، وتلك المبادئ، وذلك السمو، لما استطاعوا أن يقاربوه أو يُدانوه لا أن يصلوا إليه، وتأمل كيف أخرج رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من رعاة الغنم قادةً للأمم، ومن عبدة الأوثان وسدنة الأصنام دُعاةً للإسلام، ومشاعل للإيمان، حتى تربعوا على قصور كسرى وقيصر، وهيمنوا على ملكهم.

ولتعرف شيئاً من نسيم تلك التربية، وتشم شيئاً من عبيرها مُدَّ بصرك في بعض رياض تلك المثل، وانظر إلى الميزان والمعيار الذي كان يربهم عليه رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في معرفة الرجال وقدرهم.

ففي أحد الأيام كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالساً وعنده رجل من أصحابه فمر بهم رجل يلوح عليه شارة الغنى، وعلامة الثراء، قد لبس من أجمل الثياب، فسأل رسول الله الرجل الذي بجانبه فقال: «ما تقول في هذا الرجل؟» - يقصد الرجل الثري - فقال: يا رسول الله هذا رجل من أشرف الناس حري إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يُسمع، فسكت **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** وجلس قليلاً فمر رجل آخر، رث الحال، متواضع الهيئة، قد ظهرت عليه آثار الفقر وقلة ذات اليد، فقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** للرجل الذي سألته قبل قليل: «ما تقول في هذا الرجل؟» فقال: يا رسول الله هذا رجل من أوساط الناس، حري إن خطب ألا يُنكح، وإن قال ألا يُسمع لقوله، وإن شفع ألا يُشفع، فقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - وهو يرسم ميزان الرجال ومقياسهم في الإسلام - لمعرفته بإيمان هذا الرجل: «هذا خير من ملئ الأرض من مثل هذا!»^(١) هكذا هو معيار الإسلام فلا مظاهر،

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٣).



ولا أشكال، وإنما هو نظر لما يقوم في القلب من تعظيم الله وحرماته، وما تصدقه الجوارح بعد ذلك.

وفي إحدى رحلات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه مرّوا على شجر أراك فقام عبدالله بن مسعود يجتني سواكا من الأراك، فجعلت الريح تكفؤ ثوبه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد»^(١)

فكم من رجل جميل الشكل، حسن الجسم، ولكنه مقطوع الصلة بربه سبحانه، سيء الخلق مع الخلق، فهذا ليس له في الآخرة من خلاق، كما في الصحيح: «يؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة»^(٢)

وما ينفع الفتیان حُسن وجوههم إذا كانت الأخلاق غير حسان

وفي موقف ومقام آخر يبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغاية والهدف من هذا الوجود، ويربطهم بالآخرة حين تغريهم زهرة الحياة الدنيا.

أهدي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلة من حرير، فأخذها بعض الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجعلوا يقلبونها ويعجبون من لينها ونعومتها، وكانت غايةً في الحسن والجمال والنعومة، فنظر إليهم المربي في تلك الحال فقال: «أتعجبون من لئِن هذه؟ لمناديل سعد في الجنة خير منها وألين»^(٣)

فزهدت فيها نفوسهم، وارتفعت هممهم، وسمت أهدافهم، وهم يرون أن

(١) أخرجه أحمد (٧ / ٩٩)، وصححه ابن جرير الطبري في مسند علي (رقم ١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٢) مسلم (٢٧٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٧٦)، ومسلم (٢٤٦٨).





مناديل سعد فقط ألين من هذا الحرير، فكيف يكون لباسه! وكيف سريره وفرشه!

ولم يعرف اليأس إليه طريقاً عند الشدائد، ولا عرف التنازل عن مبادئه، بل كانت الشدة تزيد عزمًا ومضيًا وتفاؤلاً، وكان يبعث هذه الروح في أصحابه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ويربهم عليها، فعن عدي بن حاتم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قال: كنت عند رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فجاءه رجلان أحدهما يشكو العيلة، والآخر يشكو قطع السبيل، فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أما قطع السبيل: فإنه لا يأتي عليك إلا قليل، حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير، وأما العيلة: فإن الساعة لا تقوم، حتى يطوف أحدكم بصدقته، لا يجد من يقبلها منه»^(١).

وفي إحدى المحن الكبرى التي حوصرت فيها المدينة وطوقت بلفيف المشركين، تعرض صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، فشكوها إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فجاء فوضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المِعُول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا». ثم قال: «بسم الله» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا» ثم قال: «بسم الله» وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»^(٢). فما أسمى هذا التفاؤل الفذ في أخرج الأوقات وأصعبها.

(١) أخرجه البخاري (٢ / ١٠٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٠ / ٦٢٦)، وحسنه ابن حجر، وضعفه ابن كثير بميمون أبو عبدالله، وهو الأظهر فالأكثر على تضعيفه، وجاء من طرق فيها ضعف، لكن ضرب الصخرة ثابت في الصحيح. ينظر: فتح الباري (٧ / ٣٩٧)، البداية والنهاية (٤ / ١٠٢).



وإن أردت أن ترى موقفاً أعمق وأكمل، ومقاماً أسمى وأجمل، فعش في أكناف هذا اللقاء الذي تخرس أمام فصاحته مصانع الخطباء، وتشده أمام أدبه ولطفه أبصار المربين والمعلمين، ذاك أنه لما انتهت غزوة حنين وأظفر الله فيها المسلمين بهوازن بعد ما كانت الصّولة في بادئ الأمر لعدوهم، وكان الجيش قد فر أكثره وثبت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في قلّة من أصحابه، فأمر العباس وكان جهوري الصوت فنادى أصحاب بيعة الرضوان فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادهما، ثم خص الأنصار بالدعاء، فأقبلوا ملبين النداء فأبلوا بلاءً حسناً، فلما انتهت المعركة وجمعت الغنائم فإذا أودية الإبل، وإذا الشعب قد غصت بالغنم والشاء، فأعطى أبا سفيان وعيينة والأقرع وسهيل بن عمرو في آخرين كل واحد مائة ناقة^(١)، فاجتمع عليه العرب وكل يقول: أعطني يا محمد، حتى اضطروه إلى سمره فخطفت رداءه فوقف **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** وقال: «أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً» فله ما أسمى هذا الكرم وهذا السخاء.

وفي هذه اللحظات ورسول الله يقسم الغنائم، ويعطي مسلمة قريش الجدد وسادة القبائل مئات الإبل، على مرأى الأنصار الذين وجه لهم النداء قبل قليل في المعركة، والذين آووه ونصروه وآزروه فلم يعطهم شيئاً، فوجدوا ذلك في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقيي والله رسول الله قومه!

فدخل عليه سعد بن عبادَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخبره فقال: اجمع لي هذا الحي من الأنصار في الحظيرة، فجمعهم ثم دعا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فأتى فدخل عليهم،

(١) أخرجه الإمام أحمد، وقال ابن كثير: على شرط مسلم. السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٧٧)





فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالَةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى الله ورَسُولُهُ أَمَنَ وَأَفْضَلَ. ثم قال: «ألا تحبوني يا معشر الأنصار؟» فقالوا: بماذا نجيبك يا رَسُولَ الله؟ فقال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتهم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا، تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار، سوف تلقون أثرة بعدي فاضبروا حتى تلقوني على الحوض» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برَسُولِ الله قَسَمًا وَحَظًا.^(١)

في هذا المقام تظهر روعة الأخلاق، وسُمو الروح، وعظمة هذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فهل سمعت بأرق من هذا العتاب؟ أو قرأت أطف من هذا الخطاب؟ وكيف كان يريهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على رُسوخ الإيمان، والصدق في الغاية، والاعتراف بالفضل، والنظر في العقبى والآخرة، وعدم الاغترار والركون لحُطام الدنيا وزخرفها، فبقارن بين ناقة وجمل وشاة تأوي بها إلى رحلك، وبين أن تصحب خيرة الله من خلقه، وأمينه على وحيه، وكذلك هو الحال في أتباع هديه وسنته، فإذا انصرف الناس

(١) أخرجه البخاري (٦٨١٨) ومسلم (١٠٦١). وهذا لفظ الإمام أحمد.



لمتاعهم ودينارهم، فليكن همك هو تحصيل سنة رسول الله، والنهل من سلسالها،
والرشف من رحيقها، مع الموازنة بين حظ الدنيا وحق الآخرة.

تحدّث ولا تخرُج بكل عجيبة عن البحر أو تلك الخلال الزواهر
ولا عيب في أخلاقه غير أنها فرائد در ما لها من نظائر
يُقر لها بالفضل كل منازع إذا قيل يوم الجمع هل من مفاخر

ثم تأمل بعد ذلك في كيفية تعامله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مع الخطأ، وكيف يحوره
لأن ينقلب نبلاً وصواباً، في بحث عن زوايا الخير والإبداع لدى المخطئ، فلندع
القلم لأبي محدورة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** ليحدثنا عن مجريات هذا الخبر قائلاً:

قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين، فلقينا ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول
الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالصلاة عند رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فسمعنا صوت المؤذن،
ونحن متنكبون فصرخنا نحكيه، ونستهزئ به، فسمع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**
الصوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال: «أيكم الذي سمعت صوته
قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا فأرسلهم كلهم، وحسبني، فقال:
«قم فأذن بالصلاة» فقمّت، ولا شيء أكره إلي من رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**،
ولا مما يأمرني به، فقمّت بين يدي رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فألقى إلي رسول
الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** التآذين هو نفسه، ثم دعاني حين قضيت التآذين، فأعطاني صرة
فيها شيء من فضّة، ثم وضع يده على ناصية أبي محدورة، ثم أمارها على وجهه
مرتين، ثم مر بين يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سرة
أبي محدورة، ثم قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «بارك الله فيك»، فقلت: يا رسول
الله، مرني بالتآذين بمكة، فقال: «قد أمرت بك به»، وذهب كل شيء كان لرسول الله





صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كراهية، وعاد ذلك محبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

ولم يكن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحضّر مواهبهم وقدراتهم في مجال واحد، بل كان يوظف كل واحد بالمكان الذي يناسبه، فبلال بن رباح وابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الأذان، وحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمين للسر، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مقدمة الجيش وقيادة السرايا، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقضاء وتعليم الناس في اليمن، وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرواية الحديث، وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخدمة وقضاء الحاجة، وفي وصية لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»^(٢).

ولذلك من تميز المربي أن يعرف الجوانب التي يتميز بها المتربي أو يحسنها فيوظف قدراته فيها، لا أن يجعله نسخة منه، أو على ما يراه أنه مهم، إلا إذا كان المتلقي من الممكن أن يتميز في ذلك ويحسنه.

وفي ظلال هذه التربية، ومن أحضان المدرسة المحمدية تخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يخير يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاروق هذه الأمة الذي لو رآه الشيطان سالكاً فجاً لسلّك فجاً غير فجّه، وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي اهتز لموته عرش الرحمن، والعلاء بن الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي لو أقسم على الله لأبره، والذي بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقتال قوم في البحرين فحال البحر بينهم فدعا الله ثم ركب هو وجيشه البحر فلم يغرقهم^(٣)، وفي هذا

(١) أخرجه أحمد (٢٤ / ٩٨). وصححه الجوزقاني، قال البوصيري: إسناده صحيح. مصباح الزجاجة (١ / ٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣ / ١٤٥٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤ / ١٥)، والكبير (١٨ / ٩٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦ / ٥٣)، وينظر: البداية والنهاية (٩ / ٣١١)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٦١ / ٩).





يقول إقبال:

من ذا الذي رفع السُّيوف ليرفع اسمك	فوق هامات النجوم مناراً
كنا جبلاً في الجبال وربما	سرنا على موج البحار بحاراً
بمعابد الإفرنج كان أذاننا	قبل الكتائب يفتح الأمصاراً
ندعو جهاراً لا إله سوى الذي	خلق الوجود وقدر الأقداراً

ومنها تخرج عبد الله بن عمرو بن حرام كلیم الرحمن بلا ترجمان، وغيرهم
ممن يتألق في سماء العظمة، ومنابر العز، وهامات المجد

يا أمتي كنا شعاع هداية	للناس في الدنيا لها أنوار
كنا على الأيام صوت مؤذن	فرحت به الأمصار والأشجار
كنا هطيل الغيث ما سقيت بنا	أرض فماتت بعدها الأزهار
سل كل أرض قد وطئنا سهلها	ستجيبك الأمجاد والآثار
ما عدت أجزم أننا من أمة	تاقت بها الأمجاد والأقمار
يا رب إنا قد أتينا نشتكي	ظلمنا وأنت الواحد القهار



﴿وَالْحُبُّ مَدَادٌ﴾

لقد كان لتلك التربية التي غرسها رسول الله ﷺ أعظم الأثر في زرع أسمى غايات الحب، وأنبل معاني التضحية، وأرفع مقامات الصدق في قلوب أصحابه له، فهم يتفانون من أجل خدمته، ويتنافسون في سبيل رضاه، وهما هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأتي مشخناً في جراحه، قد فقد جملةً من أصحابه في غزوة أحد، فلما أقبل على المدينة وقد سبقته أنباء المعركة إليها، فخرج الناس يسألون عن أولادهم وأزواجهم وأقاربهم، وكان من بين تلك الجموع امرأة خرجت لكنها لغاية أخرى، ومقصد مغاير، فلما أقبلت أخبرت باستشهاد والدها وأخيها في المعركة، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله صالح على ما تحبين. قالت: أرونيه أنظر إليه! فما شفى غليلها إلا أن تنظر إليه بعينها وتطمئن على صحته، فأشاروا لها إليه فقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جليل! (١) - أي: هينة يسيرة.

فهل رأيت في أخبار المحبين أصدق وأنبل من هذا الحب؟! وأسمى من هذه المشاعر! وأصدق من هذا الإيمان!.

وصورة أخرى يسطرها زيد بن الدثنة وهو يقدم للقتل في مكة، وقد خرج الرجال والنساء لحضور ذلك المشهد، فيقول أبو سفيان: يا زيد أنشدك بالله، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ فأجابه زيد بصوت عالٍ سمعه الجميع: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه،

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/٩٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٠٢) وابن المنذر في التفسير (٩٠٧)، وينظر: البداية والنهاية (٤/٤٧).



تصبيُّه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. وتعجَّب الناس أشدَّ العجَب من هذا الجواب، فقال أبو سفيان لمن حوله: ما رأيْتُ من النَّاس أحداً يحب أحداً، كحُب أصحاب محمَّدٍ محمّداً^(١)!

ثم تمثل بيتين **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قبل أن يقتل:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وفي صلح الحديبية أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي ليفاوض رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فلما أتى إليه بهرته جلالته وحُبُّ أصحابه له، فرجع إلى قريش فقال: «والله لقد دخلت على كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، ورأيت ملوك اليمن، والله ما رأيت قوماً يعظمون صاحبهم ويحبونه كحُب أصحاب محمَّد لمحمَّد، والله ما التفت في جهة إلا التفتوا جميعاً في الجهة التي نظر إليها، ولا تكلم إلا سكتوا كأن على رؤوسهم الطير، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوءه، وما يحذون إليه النظر تعظيماً له»^(٢).

وهذا التبرك خاص به **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فلم يكن الصحابة يتبركون بأحد من كبار أصحاب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**.

وهكذا هي سواقي الإيمان إذا نبعت في القلب، أنبتت جناحاً حسناً من الكمال، وثماراً يانعة من العزم، وقطوفاً دانية من الحكمة.

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/١٧٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ١١٨٤)، وينظر: البداية والنهاية (٥/٥٠٥)، أما البيتان ففي صحيح البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨١).





ألا يا مُحب المِصْطَفَى زد صَبَابَةً وَضَمِّنْ لِسَانَ الذِّكْرِ مِنْكَ بِطْنِيهِ
ولا تَعْبَأَنَّ بِالْمَبْطُلِينَ فَإِنَّمَا عَلامَةُ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ حَبِيبِهِ

وهذا حَبِيبُ بن زَيْد أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَسِيلْمَةَ الْكَذَّابِ فِي الْيَمَامَةِ، فلما دَخَلَ عَلَيْهِ وَكَلَّمَهُ، جَمَعَ مَسِيلْمَةُ أَهْلَ الْيَمَامَةِ وَأَوْقَفَ حَبِيبَ أَمَامَهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ حَبِيبٌ: لَا أَسْمَعُ. فَأَعَادَ عَلَيْهِ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ حَبِيبٌ: لَا أَسْمَعُ!

فغَضِبَ مَسِيلْمَةُ عِنْدَ ذَلِكَ وَدَعَا السَّيَافَ فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْطَعَهُ عَضْوًا عَضْوًا ثُمَّ قَتَلَهُ ^(١)، وَأَهْلُ الْيَمَامَةِ كُلُّهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَأَمَّلُونَ هَذَا الْمَشْهَدَ، وَلَكِنْ مِنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.

ولكَانَ الْحَادِي يَحْدُو بِهِ فَيَقُولُ:

واهِتِفْ بِهِمْ أَنَا مِنْ جُنُودِ مُحَمَّدٍ بَايَعْتُهُ فِيمَا يُرِيحُ وَيَتَعَبُ
رَايَاتَهَا خَفَاقَةً وَسُيُوفُهَا صَفَّاقَةً وَجُنُودُهَا لَا تُغْلَبُ
واهِتَزَّتْ الدُّنْيَا لَصَوْتِ مُحَمَّدٍ اللَّهُ أَكْبَرُ شَرْقُهَا وَالْمَغْرِبُ

وهذا صَدِيقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَلِجُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَظْهَرُوا أَمَامَ قَرِيشٍ فِي الْكَعْبَةِ لَمَّا بَلَغَ عَدْدُهُمْ ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرُ إِنَّا قَلِيلٌ» فلم يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يَلِجُ حَتَّى ظَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ كُلِّ رَجُلٍ فِي عَشْرِينَ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، وَرَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ، فَكَانَ

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٤٦٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٨٢/ ٢)، وينظر: الإصابة (١/ ٣٠٦)، والاستيعاب (١/ ٣٢٨).



أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله، وثار المشركون على أبي بكر فوطؤوه وضربوه ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين ويحرفهما في وجهه، ونزا على بطنه، حتى حملوه ولا يشكون في موته وقال بنو تيم قبيلته: والله لئن مات لنقتلن عتبة بن ربيعة، فجعلوا يكلّمون أبا بكر حتى كان آخر النهار فأجاب، فكان أول ما قال: ما فعل رسول الله؟ فتكلموا عليه وعذّلوه وقاموا عنه، فجاءته أمه أم الخير بطعام فقال: إن الله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أرى رسول الله، فلما جن الليل وسكن الناس خرج يتكئ على أمه وأم جميل بنت الخطاب حتى أتى رسول الله فأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون يعانقونه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وأرضاه ^(١).

وفي غزوة أحد يقول الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا مع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مصعدين، فذهب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على ظهره لينهض على صخرة فلم يستطع، فبرك طلحة بن عبيد الله تحته، فصعد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على ظهره حتى جلس على الصخرة، قال الزبير: فسمعت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ» ^(٢)، أي: أوجب عملاً يستحق به الجنة.

وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا ذكر يوم أحد بكى، ثم قال: ذاك كله يوم طلحة ^(٣)، انهمز الناس عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وأبو طلحة بين يدي النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** محبوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديداً النزع، كسر يومئذ قوسين

(١) ينظر: أخبار القضاة لوكيع (١ / ١٨٢)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠ / ٤٦)، والبداية والنهاية (٤ / ٧٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٥ / ٤٣٦)، وبنحوه الترمذي وصححه (رقم ٣٧٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي (١ / ٨).





أو ثلاثًا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل، فيقول: «انثرها لأبي طلحة» قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك^(١).

ويُسأل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟
فيقول: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا، وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ^(٢).

قومٌ سمّت بهم العَوَاف والنُّهى أن يرغبوا في كُلِّ فَنٍ قَالِي
قوم أبّت بهم المفاخر والعُلَى أن يشتروا غير النفيس الغَالِي



(١) أخرجه البخاري (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢/ ٥٢).



﴿مَقَامُ الدَّعْوَةِ﴾

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعِيشَ فِي مِيدَانِ السَّبَاقِ وَالتَّضَحِّيَةِ، وَأَحْبَبْتَ أَنْ تَشَاهِدَ هَمًّا رَسَخَ فِي الْقَلْبِ، وَتَغْلُغَلَ فِي الرُّوحِ، وَسَرَى فِي الْأَعْمَاقِ، وَتَشْرِبَهُ الْجَسَدُ، وَجَرَى مَجْرَى الدَّمِّ، فَاقْرَأْ وَقَلِّبْ صَفَحَاتِ سِيرَةِ الْحَبِيبِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعْوَتِهِ، وَانْظُرْ إِلَى حَيَاةِ حَفَلَتْ بِالصَّدْقِ، وَامْتَلَأَتْ بِالْعَدْلِ، وَازْدَهَرَتْ بِالْبَذْلِ، وَتَجَمَّلَتْ بِالكَرَمِ، وَأَيَّعَتْ بِالْجُودِ، وَاكْتَمَلَتْ بِهِدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ

تُبْنِي الْفَضَائِلَ أَبْرَاجًا مُشِيدَةً	نَضِبُ الْخِيَامِ الَّتِي مِنْ أَرْوَاعِ الْخِيَمِ
إِذَا مُلُوكُ الْوَرَى صَفَوْا مَوَائِدَهُمْ	عَلَى شَهِيٍّ مِنَ الْأَكْلَاتِ وَالْأُدْمِ
صَفَفَتْ مَائِدَةً لِلرُّوحِ مَطْعَمُهَا	عَذْبٌ مِنَ الْوَحْيِ أَوْ عَذْبٌ مِنَ الْكَلَمِ
إِنْ كَانَ أَحَبَبْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ فِي	بَدُوٍّ وَحَضَرٍ وَمِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ
فَلَا اسْتَفَى نَاطِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ	وَلَا تَفَوَّهَ بِالْقَوْلِ السَّيِّدِ فَمِ

لَقَدْ اسْتَعَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِهِ، وَكُلَّ فُرْصَةٍ فِي حَيَاتِهِ، لِدَلَالَةِ الْأُمَّةِ عَلَى الْخَيْرِ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الرُّشْدِ، وَهَدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى النُّورِ، «فَقَدْ دَعَا فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِنِ وَالْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ، وَدَعَا جَمِيعَ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَاسْتَخْدَمَ جَمِيعَ الْأَسَالِيبِ الْمَشْرُوعَةِ.

دَعَا فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِي الْمَسْجِدِ، وَفِي الطَّرِيقِ وَالشُّوقِ، وَفِي مَنَازِلِ النَّاسِ بِالْمَوَاسِمِ، وَحَتَّى فِي الْمَقْبَرَةِ، وَدَعَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَفِي الْأَمْنِ وَالْقِتَالِ، فِي صَحَّتِهِ وَمَرَضِهِ، وَحِينَمَا كَانَ يُزُورُ أَوْ يَزَارُ، دَعَا مَنْ أَحَبُّهُ، وَمَنْ أَبْغَضُوهُ وَأَذَوْهُ، وَمَنْ اسْتَمَعُوا إِلَى دَعْوَتِهِ وَمَنْ أَعْرَضُوا عَنْهَا، وَبَعَثَ الرِّسَائِلَ وَالرُّسُلَ إِلَى الْمُلُوكِ



والرؤساء، ممن لم يتمكّن من الذهاب إليهم بنفسه»^(١).

وتأمل كيف كان يستغل كل فرصة ولحظة وحدث، كل ذلك تبليغاً لرسالة الله،

ورحمة ورأفة في الأمة أن تهوي في شفير جهنّم، فهذا صبي يهودي كان يخدم النبي **صلى الله عليه وسلم** فمرض ذات مرّة، فأتاه النبي يعوده، فقعد عند رأسه وإذا هو في لحظات الاحتضار وآخر ساعات الدنيا، فقال له: «أسلم» فنظر الصبي إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، ثم مات فخرج النبي **صلى الله عليه وسلم** مستبشراً فرحاً وكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيها وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»^(٢).

فانظر كيف أنه اجتمعت فيه خصلتان تجعلان المرء لا يعبأ به، الصغر

واليهودية، إضافة إلى كونه على فراش الموت، فلو أسلم لما انتفع منه المسلمون بشيء، ومع ذلك لم يزدري ذلك **عليه الصلاة والسلام** ولم يستقله، بل حاول حتى شرح الله صدره، ليعلم الناس أن هذا الدين قام على طلب الهدى والخير لهم، لا لمصالح شخصية، أو مطامع سياسية.

وفي موقف مشابه يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمّه أبي طالب الذي

أزّره ونصره، وهو في سكرات الموت فلم ييأس من دعوته، مع أنه عاش يدعوه عشر سنين فلم يسلم، فوقف على رأسه وهو يقول: «يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال رأس الشرك أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. ثم أنزل الله: ﴿إِنَّكَ

(١) سيد رجال التاريخ (ص ١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٣٣).



لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ (سورة القصص، الآية ٥٦).

فانظر إلى أثر رفقة الخير ورفقة السوء، لم يتركوا إغواءه حتى وهو على فراش الموت.

ولم يكن عليه الصلاة والسلام يحقر أحداً أو يبخل في علم على أحد، ففي أحد الأيام كان يسير على حمار له وقد أردف خلفه عبد الله بن عباس وكان غلاماً صغيراً، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولوا اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (٢).

وهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يحدث عن دعوته فيقول: لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في المواسم، في مجاز ومجنة وعكاظ، ومنازلهم في منى فيقول: «من يؤويني؟ ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة» فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، حتى إن الرجل يرحل من مضر أو اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك (٣).

وقال رجل من كنانة: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» وأبو جهل يحثي عليه

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤) مسلم (٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وصححه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٤٦٩٤)، وصححه البوصيري. إتحاف الخيرة المهرة (٧/ ٣٥٢).



الثَّراب ويقول: لا يَغُويْكُمْ هذا عن دِينِكُمْ، فإنما يُريد لتترُكُوا آلِهَتَكُمْ، وتترُكُوا اللات والعُزَّى، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ^(١).

وفي أحد أسفاره وهو يمشي أقبل عليه أعرابي فلما دنا منه قال له: «أين تريد؟» فقال الأعرابي: إلى أهلي. فقال: «هل لك إلى خير؟» قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن مُحَمَّدًا عبده ورَسُولُه» فقال الأعرابي: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: «نعم هذه الشَّجَرَة» فدعاها ﷺ وهي على شاطئ الوادي، فأقبلت تَحُدُّ الأرض خَدًّا، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا فشهدت أنه كما قال، ثم إنها رجعت إلى منبتها، فرجع الأعرابي إلى قومه فقال: إن يتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت إليك وكنت معك^(٢).

بل بلغ من حرصه عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه كان يرجوا هداية أجيال من آذوه أشد الأذى وطرُدوه وسخروا منه، فعندما رجع مردودًا من الطائف أرسل الله له ملك الجبال فخيرَه إن شاء أن يطبق عليهم الأخشبين جبلي مكة فيموتوا، فقال عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بل أَسْتَأْنِي بهم لعل الله أن يُخرج من أصْلابهم من يعبد الله»^(٣).

ولما توفي أحد أصحابه ووضعه ليلحدوه في قبره، انتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة، ولحظة التأثر من أصحابه، وفرصة اجتماعهم، فوعظهم موعظة جليلة عظيمة، وعلمهم فيها ما يحصل للميت من نزع الروح، وحضور الملائكة، وصعود الروح إلى السماء، وماذا يحصل له بعد مماته في قبره

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٦٥٤)، وصححه ابن الملقن. البدر المنير (١/ ٦٨٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٥٠٥)، والدارمي (٦)، وصححه البوصيري، وجود إسناده ابن كثير. إتحاف الخيرة المهرة (٧/ ١٠٦)، البداية والنهاية (٦/ ١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٥٩) مسلم (١٧٩٥).



وسؤال الملكين له^(١).

بل إنه - صلوات الله وسلامه عليه - لم يترك دعوة هذه الأمة حتى وهو في مرض الموت فقد كان يقول: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر من صنعهم^(٢)، ويحذر من وضع الأضرحة في المساجد، ومن الطواف عليها، ومن بذل الذور لها، حمايةً لحمى التوحيد، أن يصرف شيء من العبادة لغير الخالق الرازق سبحانه.

ثم تأمل حذبه على هداية الأمة أنه كان وهو يجود بنفسه، وفي السكرات التي ينشغل الإنسان فيها عن كل شؤون الحياة، يحض الأمة على الصلة بربها فيقول: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، وما زال يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه»^(٣).

لتحمل هذه الرسالة الخالدة على أكتافها، ولتخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتكون مشعلاً ونبراساً يضيء في دياجي ظلمات الجهل والشرك.

وكان يراعي نفسيات الآخرين وجوانب التأثير فيهم كل بما يناسبه، ففي صلح الحديبية أرسلت قريش رجلاً من بني كنانة ليفاوض النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أشرف قال صلى الله عليه وسلم: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٥٥٧)، وصححه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٦٥) مسلم (٥٣١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤٤ / ٨٤)، من دون لفظ: (حتى صار يغرغر بها في صدره، وما كان يفيض بها لسانه)، فقد أخرجا ابن حبان والحاكم. وقد صحح الحديث البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٠٥)، وجوده ابن الملقن في شرحه للبخاري (٢١/ ٦٤٥).





لَهُ» فَبَعَثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يَلْبُون، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لَهُؤُلَاءِ أَنْ يَصْدُوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبَدَنَ قَدْ قَلَدَتْ وَأَشْعَرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يَصْدُوا عَنِ الْبَيْتِ^(١).

ولما أسلم أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»^(٢).

وعلم تأثر سادة القبائل بالمال فأعطاهم يتألفهم ليقوي إيمانهم، وليؤثروا فيمن تحت أيديهم من العامة.

وهكذا كان يكسب الناس بما يرغبونه ويحبونه.

فعلى كل مؤمن أن يسير على خطا حبيبه، ويسلك منهج نبيه وقدرته، ويرفع شعار:

هي دعوة الله أقبل فجرها	بالنور يخفق مُشرقاً وضاء
ضربت بأعماق النفوس جذورها	وسمت مناراً للهدى ولواء
وسيزهر الحلم الذي نصبوا له	أرضاً تعانق في الوجود سماء
باللعزائم حين تنهض حرّة	وتحطم النير البغيض هباء
تمشي على هام النجوم عزيزة	تذكي النفوس توثباً ومضاء

«لقد فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر بطنه، فما يفكر أجاع في سبيل الدعوة أم شبع، وفرغ من أمر جلده فما يبالي ألبس أكسية الصوف أم ارتدى برود

(١) أخرجه البخاري (١٦٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠).



اليمن، وفرغ من أمر الجاه فما يعيقه أن يُلقى في طريقه الشوك، ولا يزدهيه أن يفرش بالورود، لم يفكر في أن يستغل دعوته لينال زعامه، ولو أرادها لكانت طوع يديه، أو ليجمع مالا، أو ليقتني ضيعة، أو ليؤمده إلى أتباعه ليقبلوها ويملئوها فيعيش معظماً^(١) مبعجلاً مرفهاً مخدوماً، ولكن جاهد وناضل وحمل الأذى، ولم يميز نفسه عن أصغر واحد من أتباعه في مطعم أو ملبس، ولا متعة ولا جاه، بهذه الحكمة وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد، كانت صورته الظاهرة بياناً وآثراً للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد، وكان يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتركبة النفوس، والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب اللؤد والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة، سأله رجل: أي الإسلام خير؟ فقال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٢).

وسأله آخر: أي المسلمين خير؟ فقال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣).

كما كان يبين لهم ما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله، وكان يربطهم بالوحي النازل من السماء ربطاً موثقاً، فكان يقرؤه عليهم ويقرؤونه، لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبير، وهكذا هذب نفوسهم، ورفع معنوياتهم، وأيقظ مواهبهم، وزودهم بأعلى القيم، حتى وصلوا إلى أعلى قمة من الكمال البشري.



(١) سيد رجال التاريخ (ص ٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٢) مسلم (٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤٠).



﴿مَقَامُ الإِقْدَامِ﴾

إِذَا حَمَلَ كُلُّ كَاتِبٍ قَلَمَهُ، وَوَضَعَ كُلُّ مُؤَلِّفٍ يَدَهُ لِيَسْطُرَ كِتَابًا، أَوْ يَكْتُبَ مَقَالًا، أَوْ يَبْعَثَ رِسَالَةً، تَرَدَّدَ وَتَحَيَّرَ وَتَوَقَّفَ كَثِيرًا؛ لِيَنْظُرَ بِمِ يَفْتَحَ وَيَبْتَدِئَ مَقَالَهُ وَكِتَابَتَهُ، فَتَرَاهُ يَنْمُقِي الْعِبَارَةَ، وَيَتَفَنَّنُ فِي الصِّيَاغَةِ، لِيَجْذِبَ الْقَارِئَ وَيَشْوِقَهُ لِمَتَابَعَةِ أُسْطُرِ مَقَالَتِهِ، أَوْ صَفَحَاتِ كِتَابِهِ، وَلَكِنْ عُنْوَانُ هَذَا الْمَقَامِ لَا يَحْتَاجُ فِي نَظْمِهِ وَسَبْكِهِ لَتَزْوِيقِ الْعِبَارَاتِ، وَلَا لِحَشْوِ الْكَلِمَاتِ، وَلَا لِبَهْرَجَةِ الْأَلْفَاظِ، ذَاكَ أَنَّهُ يَبْعَثُ فِي رَوْعِ قَارِئِهِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ مُعَانِي الْعِزِّ وَالْإِبَاءِ، وَالشُّمُوخِ وَالْجَسَارَةِ، فَيَحْرُكُ كَوَامِنَ النَّفْسِ، وَيُلْهَبُ عَوَاطِفَ الْحَسَنِ، فِي الْمَاضِي قُدَمًا لِكُلِّ مَا يَقْرُبُ إِلَى الْمَوْلَى **عَزَّجَلَّ** وَيُصْرِفُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

فَكَيْفَ بَكَ إِذَا كَانَ هَذَا الْمَقَامُ يَتَحَدَّثُ عَنْ إِقْدَامِ أَسَلِ الشُّجْعَانِ، وَصَانِعِ الْأَبْطَالِ، عَمَّنْ وَصَفَهُ أَصْحَابُهُ وَصَحَابَتُهُ - رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ - فَقَالَ مُتَحَدِّثُهُمْ وَاصِفًا إِقْدَامَهُ وَشَجَاعَتَهُ، وَبَذَلَهُ وَتَضَحُّيَتَهُ، «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ نَتَّقِي بِرُسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ الشُّجَاعُ مِنَّا لِلَّذِي يَحَازِي بِهِ»^(١)، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِرُسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمئِذٍ بَاسًا»^(٢).

مَلِكُ الشُّجَاعَةِ فَهِيَ طَوْعُ زَمَامِهِ وَلِغَيْرِهِ جَمَحَتْ وَلَيْسَتْ تُرْكَبُ

وَمَهْمَا تَحَدَّثْتَ الْأَخْبَارَ، وَنَقَلْتَ السَّيْرَ وَالْآثَارَ، جُرَّائِهِ وَإِقْدَامَهُ وَشَجَاعَتَهُ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُوفِيَ ذَلِكَ الْبَذْلَ، أَوْ تُقَوِّمَ ذَلِكَ الْعَدْلَ، أَوْ تَسِمَ تِلْكَ التَّضَحِّيَةَ؛ الَّتِي قَامَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) أخرجه مسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٨١ / ٢).



وَعَلَى تَفَنُّنٍ وَاصِفِيهِ بَوْضُفِهِ يَفْنَى الزَّمَانُ فِيهِ مَالَمَ يَوْصَفُ

إِنَّ الإِقْدَامَ وَالشَّجَاعَةَ فِي حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سِمَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَعَلَامَةٌ بَارِزَةٌ، فَأَعْلَامُهُ خَفَاقَةٌ، وَسُيُوفُهُ بَرَّاقَةٌ، وَصَوْلَتُهُ فِي الْحَقِّ ثَائِرَةٌ، وَجُيُوشُهُ فِي الْعَدْلِ سَائِرَةٌ، فَتُرْبَةُ الْأَرْضِ، وَصُخُورُ الْجِبَالِ، وَأَدِيمُ السَّمَاءِ، تُبْنِئُكَ عَنْ دَوِيِّ صَوْتِهِ، وَثَبَاتِ جَاشِهِ، فِي خَمْسٍ وَعَشْرِينَ غَزْوَةً سَارَ فِيهَا بِنَفْسِهِ، مَنَاهَضًا لِأَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ جَعَلُوا مَعَهُ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ وَالْوَهْيَةِ.

وَاسْتَمَعَ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَحَدِ مَجَالِسِهِ وَهُوَ يَحْدُثُ أَصْحَابَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَثَلِ فَيَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشَجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قَبْلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِّي، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تَرَ عَوَالِمَ تَرَ عَوَالِمًا»^(١).

وَلَا غَرَوْ فِي ذَلِكَ وَلَا عَجَبَ فَهُوَ الْقَائِلُ «وَدِدْتُ أَنْ أَقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أَقْتَلَ، ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أَقْتَلَ»^(٢)، وَالْقَائِلُ كَذَلِكَ «لَأَنْ أَقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْوَبَرِ وَالْمَدَرِ»^(٣).

فَلَقَدْ كَانَ أَبُي هُوَ وَأُمِّي - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مِنْ أَجْلِ أَمَانِيهِ أَنْ يَسِيلَ دَمُهُ، وَتَتَنَاثَرَ أَشْلَاؤُهُ، فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ، وَفِي سَبِيلِ رِضَاهُ.

فَرَّدَ التَّوَاضُّعَ فَرْدَ الْجُودِ مَكْرُمَةً فَرَّدَ الرِّجَالَ عَنْ الْأَشْبَاهِ وَالنُّظُرَا
أَعْلَى الْعُلَا فِي الْعُلَا قَدْرًا وَأَمْنَعُهُمْ دَارًا وَجَارًا وَإِسْمًا فِي السَّمَاءِ ذُرَا

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥١) مسلم (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤٤) مسلم (١٨٧٦).

(٣) أخرجه النسائي (٦ / ٣٣)، وحسنه الألباني.





ومن أيامه التي حَفَلَتْ بِصِدْقِ إِرَادَتِهِ، وَثَبَاتِ عَزِيمَتِهِ، غَزْوَةُ بَدْرِ الْكُبْرَى، التي خَرَجَ فِيهَا مُسْرِعاً يُحِثُّ السَّيْرَ، وَيَسْتَبِقُ الْخَطَى، فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَأَرْبَعَةِ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، يَعْتَقِبُ بَعِيرًا هُوَ وَعَلِيٌّ وَمَرْتَدُّ الْغَنَوِيِّ، فَلَمَّا بَلَغَ الرُّوحَاءَ أَتَاهُ خَبَرُ النِّفِيرِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ قَرِيشٌ لِحِمَايَةِ قَافِلَتِهَا الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَرِيدُ الْاسْتِيْلَاءَ عَلَيْهَا؛ فَجَمَعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَصْحَابَهُ يَسْتَشِيرُهُمْ، وَهُوَ الَّذِي مَا كَانَ يَقْطَعُ أَمْرًا دُونَهُمْ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ الْمُقَدَّادُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهُ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مَقَاتِلُونَ.

فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ» وَإِنَّمَا يَرِيدُ الْأَنْصَارَ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَايَعُوا لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَمْ تَكُنِ الْمَبَايَعَةُ عَلَى الْقِتَالِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ فَقَالَ: لَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنْ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدُونَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَكَ، فَاْمْضِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا الْبَحْرَ فَخَضْتَهُ لَخَضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ نَلْقَى عَدُونَا غَدًا، إِنَّا لَصَبِرُ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسَرَّ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَسَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: «سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»^(١) ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَلَ عِنْدَ آبَارِ بَدْرِ فَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَكَانَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَابِلًا

(١) جاءت القصة بسياقات متعددة عند أصحاب السنن، ينظر فيها وما بعدها: مرويات غزوة بدر (ص ١٤٣).



شديداً وكان على المسلمين طلاً طهرهم الله به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطأ به الأرض وثبت به الأقدام، ومهد به المنزل.

فلما كان الصّباح بنى الصّحابة له عريشاً يُطل به على ميدان القتال، فنزل إلى ساحة المعركة وجعل يشير بيده «هذا مضرع فلان» ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، فما تباعد أحدهم عن موضع يد رسول الله **صلى الله عليه وسلم**.

وفي إشارته هذه لفتة مهمّة في جانب تعزيز الثقة بالنفس لدى الأتباع، وأن الظفر لهم وحليفهم، من غير مبالغة في الموعود تحققة.

وفي ليلة المعركة أصاب المسلمين نعاس ألقى عليهم فناموا، وقام أكمل الخلق إيماناً، وأرسخهم يقيناً، وأصدقهم عبادةً، يوحد خالقه ويدعوه ويتملقه، ويسأله النصر والتمكين، ويُلح عليه، ويتضرع بين يديه، فأجاب له الله ما طلب، ويسر له ما أراد، وأمدّه بجندٍ من الملائكة يتقدمهم ويقودهم روح القدس جبريل عليه السلام، وفي ذلك يصدح حسان بأفخر بيتٍ قالته العرب واصفاً ذلك الشرف وتلك المكرمة.

وبيوم بدرٍ إذ يرُدُّ وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمّد

فلما نشب القتال، والتحمت الصفوف، قام **عليه الصلاة والسلام** يدعو ربه ثانية حتى سقط الرداء من ظهره وهو يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لا تعبد في الأرض أبداً» فأشفق عليه الصديق **رضي الله عنه**، فجعل يرفع الرداء على عاتقه ويقول: يارسول الله بعض مناشدتك لرّبك، فإن الله منجز لك ما وعدك، فأخذت رسول الله **صلى الله عليه وسلم** سنة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً، فقال: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع» ثم



خَرَجَ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَتْلُو: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (سورة القمر، الآية ٤٥) فَأَعَزَّ اللَّهُ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَكَسَرَ كِبْرِيَاءَ قَرِيشَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَأُسِرَ سَبْعُونَ آخَرِينَ.

وَلَمَّا رَجَعَتْ قَرِيشُ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ، لَتَّ شَأْرَ لِقَتْلَاهَا فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ لَبَسَ الدَّرْعَ وَالْمَغْفَرَ، فِي أَلْفِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، لِلْقَاءِ الْمَشْرِكِينَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الطَّرِيقِ رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سَلُولُ بِثَلَاثَةِ الْجَيْشِ، وَقَالَ بِمَنْطِقِ النِّفَاقِ الَّذِي مَازَالَ يَرُدُّهُ تَلَامُذَتُهُ عَنِ الْعُصُورِ إِلَى هَذَا الزَّمَنِ: ﴿لَوْ نَعَلِمُ قِتَالَ لَا تَبْعَنَكُمْ﴾، فَلَمْ يَشَأْ ذَلِكَ شَيْءٌ مِنْ عَزْمِ الْمُصْطَفَى وَعَزِيمَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ تَقَدَّمَ حَتَّى نَزَلَ أَحَدًا، فَصَفَّ الْجَيْشَ وَعَبَأَ الصُّفُوفَ، وَوَضَعَ الرَّمَاةَ فَوْقَ الْجَبَلِ خَلْفَهُ لئَلَّا يَبْغَتْهُمْ الْعَدُوُّ مِنْ خَلْفِهِمْ، وَقَدِمَتْ قَرِيشٌ بِحَدِّهَا وَحَدِيدِهَا وَكِبْرِيَاءِهَا، تَحَادَّ اللَّهُ وَرُسُلُوهَ، فَنَشَبَ الْقِتَالُ، وَحَمِيَ وَطِيسَ الْمَعْرَكَةِ، فَكَانَتِ الْغَلْبَةُ لِلْمُسْلِمِينَ وَفَرَّ الْمَشْرِكُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَنَزَلَ الرَّمَاةُ وَخَالَفُوا أَمْرَ الْقَائِدِ، فَكَّرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ خَلْفِهِمْ بِكَتَيْبَةٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَقَتَلَ مِنْ بَقِيٍّ مِنَ الرَّمَاةِ عَلَى الْجَبَلِ، وَدَارَةَ الدَّائِرَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَشَرَفَ اللَّهُ مِنْهُمْ رَجَالًا بِالشَّهَادَةِ وَاصْطَفَاهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتًا يَقُولُ: أَيْنَ مُحَمَّدٌ لَا نَجُوتَ إِنْ نَجَا، فَإِذَا هُوَ أَبِي بَنٍ خَلْفٌ قَدْ أَقْبَلَ مُقْنَعًا بِالْحَدِيدِ، وَقَدْ كَانَ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدِي فَرَسٌ، أَعْلَفَهَا كُلَّ يَوْمٍ فَرَقًا مِنْ دُرَّةٍ، أَقْتَلْتُكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَقْتَلُكَ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

فَلَمَّا رَأَاهُ يَوْمَ أَحَدٍ، شَدَّ أَبِيٌّ عَلَى فَرَسِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاعْتَرَضَهُ رَجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ هَكَذَا، أَيْ خَلُّوا طَرِيقَهُ، وَتَنَاوَلُوا الْحَرْبَةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصُّمَّةِ، فَانْتَفَضَ بِهَا انْتَفَاضَةً تَفَرَّقُوا عَنْهُ



تفرق الحمُر قد باغتها الأسد، وطعنه في عنقه طعنةً تدأداً فيها عن فرسه مراراً، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس لم يصبك أذى، فقال: لقد وعدني أن يقتلني بمكة، والله لو بصق علي لقتلني، فمات عدو الله بسرٍف وهم قافلون به إلى مكة^(١).

وانتهت تلك الغزوة بما فيها من دروس وعبر، وجاءت غزوة الأحزاب، فقام فيها رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم أعظم قيام، وصمدوا أمام طوفان التحزب المشرك البالغ عشرة آلاف رجل بأمنع سلاح، وأجود عتاد، وهم لا يجاوزون الثلاثة آلاف مع ضعفٍ في العدة والعتاد، وشظفٍ في العيش، ورفع الله منار الإسلام بعد ذلك اليوم، فجعل المسلمون بعدها يغزون ولا يغزون.

ثم جاءت سنة الحديبية فأشيع فيها مقتل عثمان رضي الله عنه، فهب رسول الله ﷺ في ثباتٍ، وشمر في عزيمة، وصاح في أصحابه فتواثبوا إليه يبايعونه على الموت، وهو مستظل تحت شجرة، فأنزل الله - جل في علاه - رضاً بما صنعوا، وإكراماً لهم على ما قدموا، آياتٍ فيها الرضى منه عليهم، والثناء والمدح، تتلى وتُردد إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وأخبر النبي ﷺ أنه «لن يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة»^(٢).

ورجع عثمان ولم يكن الخبر صحيحاً، فتم الصلح الشهير مع قريش، فلم يكن المشركون ليوفوا بدمّة، ولا ليفؤا بعهد، فنقضوا ما أبرموا مع رسول الله ﷺ، فنفر إلى مكة بين يديه جحافل الإيمان، وعساكر الإسلام، في مقدم لم تر الأرض في ذاك الزمن أبهى ولا أجل منظرًا منه، فدخل مكة التي أخرج

(١) أخرجه ابن هشام (٢/ ٨٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠) وصححه.





منها، وطالما طارده رجالها، ووقفوا عثرةً في طريق دعوته، فاتحاً عزيزاً، مُكرماً مَبْجَلاً، فلم يلهِه بهجة الفتح، ونشوة النصر، وعزة الموقف، عن الشكر والحمد للمنعِم المتفضِّل، فدخلها في غاية الدُّل، وكمال الخُضوع لربه، متخسَعاً، ذقنه على راحلته^(١)، وقد طأطأ رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عشونه ليكاد يمس واسطة الرحل^(٢).

ثم جَمَعَ أولئك الذين آذوه ولمزوه وأخْرَجُوهُ، عند الكعبة التي كان قَبْل سنوات يوضَع على ظُهره عندها من قِبَلِهِمْ سَلا الجزور، ويُنصب بين يديه فيها الأصنام عناداً وتعتاً، فما تراه يصنع بهم؟ وبِمَ تظن عقابهم سيكون؟ لقد قام فيهم وعلى وجوههم علامات الخوف والوجل، وقسمات الحياء والخجل، فقال في هُدوء الصَّمْت الذي يُخيِّم عليهم: «ما تظُنُّون أني فاعِلٌ بكم؟» فقالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم، فقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في منطقٍ يهتز نضرةً ويتألق عظمةً: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»^(٣).

خُلِقَ أَرْقٌ مِنَ النَّسِيمِ وَنَفْحَةٌ
وَسَرِيرَةٌ مَرَضِيَّةٌ وَعَزِيمَةٌ
تُغْنِي الْعَدِيمَ وَتُنَجِدُ الْمَجْهُودَا
عُلُوبَةً سَمَتِ السَّمَاءَ صُعودَا
ذَا الْبَحْرِ عِلْمًا ذَا النُّجُومِ طَلَائِعًا
ذَا الصَّخْرِ حِلْمًا ذَا الْغَمَامَةِ جُودَا

ثم انطلق بعد فتح مكة إلى هوازن وقد اجتمعوا في حنين في عشرين ألف رجل، فلمَّا نزلوا وادي حنين مع انبلاج الصُّبح، فاجأتهم هوازن في كمينٍ في فم

(١) البداية والنهاية (٦ / ٥٤٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٢ / ٤٠٥)، البداية والنهاية (٦ / ٥٤٧).

(٣) سيرة ابن هشام (٢ / ٤١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ٢٠٠)، وإسناده ضعيف، لكن العفو العام ثابت عنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لمن دخل داره أو دار أبي سفيان.



الشَّعب، وكانوا رجالاً رَمَاءَ فَفَرَّ المسلمون، ولم يبق مع رَسُول الله ﷺ إلا أبو سُفْيَان بن الحَارِث أَخَذَ بِرَأْسِ بَغْلَتِهِ، وَنَفَرَ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْهَزِيمَةَ: «أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ» ثُمَّ جَعَلَ يِقَاتِلُ وَيُرْكِضُ بَغْلَتَهُ نَحْوَ الْعَدُوِّ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ

والعباس يكف البغلة إرادة أن لا تسرع خوفاً على رسول الله ﷺ.

ثم أَمَرَ الْعَبَّاسُ وَكَانَ صَيِّتًا جَهَوْرِي الصَّوْتِ، أَنْ يَنَادِيَ الْأَنْصَارَ، وَأَصْحَابَ **بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ**، فَكَرَّوْا إِلَيْهِ وَتَجَمَّعُوا حَوْلَهُ ^(١)، فَاشْتَدَّ النَّزَالُ، وَتَقَارَعَ الْأَبْطَالُ، فَقَالَ ﷺ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى شِدَّةِ الْبَأْسِ، وَاحْتِدَامِ الْمَعْرَكَةِ «الآنَ حَمِي الْوَطِيسِ» ثُمَّ نَزَلَ عَلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ حَفْنَةً تَرَابٍ فَرَمَى بِهَا وَجُوهَهُمْ وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنِيهِ تَرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مَدْبِرِينَ، وَنَصَرَ اللهُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ^(٢).

وَمَعَ هَذَا كُلَّهُ فَقَدْ كَانَتْ شَجَاعَتُهُ ﷺ شَجَاعَةً مِنْ غَيْرِ بَطْشٍ، وَقِتَالًا مِنْ غَيْرِ تَعَدٍّ أَوْ ظُلْمٍ، وَإِقْدَامًا مِنْ غَيْرِ حِقْدٍ أَوْ انتقامٍ، فَلَا يَبْتَدِئُ بِقِتَالِ أَحَدٍ حَتَّى يُعْذِرَهُ وَيُنْذِرَهُ، ثُمَّ يَخِيرُهُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ أَوْ الْجَزِيَةِ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلَهُ وَنَازَلَهُ، وَكَانَ يَأْمُرُ سَرَايَاهُ وَبُعُوثَهُ وَجُيُوشَهُ، أَلَّا يَغْلُوا وَلَا يَغْدُرُوا، وَلَا يَقْتُلُوا صَغِيرًا أَوْ امْرَأَةً، أَوْ رَاهِبًا فِي صَوْمَعَتِهِ، أَوْ شَيْخًا كَبِيرًا، وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَسْرَى، وَيُرْسِخُ ذَلِكَ عَمَلِيًّا أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، كَمَا فِي قِصَّتِهِ مَعَ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ، وَكَانَ مَعَ أَعْدَائِهِ خَيْرٌ مِنْ

(١) أخرجه النسائي (٤١/٨)، وعبد الرزاق (٣٧٩/٥)، وأخرجه البخاري ومسلم مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٢٨)، ومسلم (٢٤٩٨).





الناس مع أصحابهم وأحبّابهم، فهكذا كانت هي سيرة نبينا ﷺ وحياته
وشجاعته، مع البعيد والقريب، والعدو والصديق، فشأهت وجوه عبّاد الصليب،
الذين أظلمت وانعكست في أعينهم الحقائق، فرأوا الحق باطلاً والباطل حقاً.



﴿رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

لقد امتزجت الرحمة، وخالط الكرم، وضوّعت المحبة خلایا دمه، ومناسم عروقه، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلم يكن يفرق بين أن يقف لأجل مشكلة ناقة وجمل، أم من أجل جارية ضاقت بها الحيل، وانقطعت عليها السبل، أم لأجل صبي أحب أن ينثّ مشاعره، ويثّ هموم صباه، أم لأعرابي خلق الثوب، جاف الطباع، كل ذلك في ميزانه سواء ؛ وأن يقف لأجل قبيلة بكاملها، أو سادات قوم، أو فرسان بواسل، أو خطباء مفوهين، فلم يكن شرف النبوة، وكرم الرسالة، ورفع الجاه، يحول بينه وبين أن يمشي في حاجة الصغير قبل الكبير، والجارية قبل السيد، والحيوان والبهيمة والطير.

في أحد أسفاره ومعه أصحابه - رضوان الله عليهم - ذهب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لحاجة له، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرأينا حُمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «من فجّع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها» ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»^(١).

جاءت إليه حَمَامَةٌ مُشْتَاةٌ تَشْكُو إِلَيْهِ بِقَلْبٍ صَبٍ وَاجِفٍ

ودخل ذات مرة في نفر من أصحابه بستاناً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل: فما إن رأى رسول الله حتى حنّ الجمل وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه أبو داود (٤ / ٣٦٧)، وصححه ابن الملقن، وقال ابن مفلح: إسناده جيد. البدر المنير (٨ / ٦٨٩)، الآداب الشرعية (٣ / ٣٥٧).





فمَسَحَ ذُفْرَاهُ فَسَكَنَ، ثم قال: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟» فقال فتى من الأنصار: هو لي يا رسول الله، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكََا إِلَيَّ أَنْكَ تَجِيعُهُ وَتَدْبِئُهُ!»^(١).

حَنَّتْ لَهُ النُّوقُ مِنْ وَادِ الْعَقِيقِ بَكَّتْ تَجْرِي بِأَحْمَالِهَا شَوْقًا لِلْقِيَاةِ

وَفِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ لَمَّا أَرَادَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَنْحَرَ الْإِبِلَ لِلْهَدْيِ كَانَتْ الْإِبِلُ وَالنُّوقُ تَتَسَابِقُ وَتَتَصَارِعُ، أَيُّهَا تَتَشَرَّفُ وَتَحْطِي بِنَحْرِ رَسُولِ اللَّهِ لَهَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ^(٢).

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ نُوقٌ وَجَمَالٌ تَدَافَعَتْ وَبَادَرَتْ لَتَحْطِي بِشَرَفِ نَحْرِهَا لَهُ، فَأَيْنَ رَجَالُ الْإِسْلَامِ، وَفَتَيَانُ الْإِيمَانِ، مِنْ بَذْلِ الْغَالِي وَالنَّفِيسِ، وَتَسْخِيرِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَمْوَالِ، طَاعَةَ اللَّهِ وَاتِّبَاعًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وَأَيْنَ مِنْ ادْعَوْا أَنَّهُمْ فِدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِآبَائِهِمْ وَأُمَهَاتِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ تُتَرَجَّمْ ذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ، وَلَمْ تَقُمْ شَاهِدَةً عَلَى ذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ، «إِنْ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَتْ دَعْوَى بِاللِّسَانِ، وَلَا هَيَامًا بِالْوَجْدَانِ، وَلَا عِبَارَاتٍ تَرَدَّدُ، وَلَا كَلِمَاتٍ تَقَالُ، وَلَا شَعَارَاتٍ تَرْفَعُ، وَلَا شَعَائِرُ تَقَامُ فَحَسَبُ»، وَإِنَّمَا هُوَ مَعَ ذَلِكَ انْقِيَادُ اللَّهِ وَلِلرَّسُولِ، وَاتِّبَاعُ لِلْمَنْهَجِ الَّذِي يَحْمِلُهُ الرَّسُولُ.

وَلَمَّا كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْطُبُ عَلَى جَذْعِ شَجَرَةٍ فَصَنَعَ لَهُ مِنْبَرٌ لِيَخْطُبَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا صَعَدَ عَلَى الْمَنْبَرِ بَكَى ذَلِكَ الْجَذْعُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ بِجَانِبِهِ، حَزَنًا عَلَى فِرَاقِ ذَلِكَ الْجَسَدِ الطَّاهِرِ، وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ، وَالْيَدِ الشَّرِيفَةِ، وَرِيَاضِ الْجَنَّةِ،

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٤)، وأبو داود (٢٥٤٩)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي والألباني. المستدرک علی الصحیحین (٢ / ١٠٩).

(٢) الخبر عند الإمام أحمد (١٩٠٩٨٦) وصححه شعيب الأرنؤوط.



وبساتين الإيمان التي كانت تقام بجانبه، فنزل الشفيق الرحيم إلى ذلك الجذع فاحتضنه فجعل يئن ويخفت صوته كالصبي الذي يُسكّت، حتى هدأ وسكن، فقال عند ذلك نبي الرحمة: «والله لو تركته لحن إلى يوم القيامة!»^(١).

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضمه إليه، تئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»^(٢).

وكان الحسن البصري إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: يا أهل الإيمان، جذع يحن إلى رسول الله، أفلا تحن إليه قلوبكم!.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفف الصلاة التي هي قرة عينه وأنس روحه من أجل بكاء صبي؛ لئلا يشغل قلب أمه عليه^(٣).

وكان كثيراً ما يؤتى بالصبيان يحنكهم - والتحنك أن يمضغ التمر أو نحوه ثم يدلك به حنك الصغير - فجاءت أم قيس بنت محصن بطفل لها فبال في حجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يغضب ولم يعتب، وإنما دعا بماء فنضحه^(٤).

وعن أبي ليلى، أنه كان عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى بطنه الحسن أو الحسين، فبال حتى رأيت بوله على بطن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أساريع قال:

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣١)، والبخاري بنحوه (٨٧٥)، قال ابن كثير: باب حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفقا من فراقه، وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان. البداية والنهاية (١٣١/٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٧).





فوثننا إليه، فقال: «دعوا ابني، أو لا تفرعوا ابني» ثم دعا بماء فصبه عليه^(١).

وكان يخطب ذات مرة، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (سورة التغابن، الآية ١٥) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»^(٢).

ومن عجب تعامله ولطفه مع الصبيان أمام أقوام لم يعتادوا في الغالب على حملهم أو التبسط معهم، ما حدث به شداد بن الهاد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي - الظهر أو العصر - وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم النبي ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى فسجد سجدة أطالها، قال شداد: فرفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك؟ قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»^(٣).

ومن تلطفه وممازحته للصبيان ما ذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٠٣ / ٣١)، وصححه محققوا المسند.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٨ / ١٠٠)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وقال ابن عبد الهادي في التنقيح: إسناده على شرط مسلم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٥ / ٤٢٠)، وابن أبي شيبة (١٢ / ١٠٠)، وصححه محققوا المسند.



طير كان يلعب به^(١).

وعن يعلى بن مرة أنهم خرجوا مع النبي ﷺ إلى طعام دعوا له، فإذا حسين يلعب في السكة، فتقدم النبي ﷺ أمام القوم، وبسط يديه، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا، ويضاحكه النبي ﷺ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى في فأس رأسه، فقبله، وقال: «حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط»^(٢).

وجاءه أحد أصحابه يسأل عن شفقة ورحمة يجدها في قلبه للبهيمة عند ذبحها فكان من سؤاله: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها - أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها - فقال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»^(٣).

وخرج ﷺ في حاجة فمر ببعير مناخ على باب المسجد من أول النهار، ثم مر به آخر النهار وهو على حاله، فقال: «أين صاحب هذا البعير؟» فابتغي فلم يوجد، فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها صحاحاً، واركبوها سمناً» كالمتسخط آنفاً^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٩ / ٢٣٣)، وابن أبي شيبة (٤٠٠ / ١)، وابن ماجه (٣٧٢٠)، والترمذي (٣٣٣)، وصححه أبو نعيم في الحلية، وذكر أنه ثابت من غير وجه من حديث ابن عينة (٧ / ٣٦٢)، وصححه ابن عساكر.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١ / ١٠٢)، وابن حبان (٦٩٧١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٩٠)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٤ / ٣٥٩)، وصححه الحاكم وابن القيم. المستدرک (٤ / ٢٥٧)، جلاء الأفهام (١ / ١٦٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤ / ١٨٠ - ١٨١)، وابن حبان (٨٤٤) وقال الألباني: سنده صحيح على شرط البخاري. سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٦٣).





ومر على رجل واطع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «أفلا قبل هذا! أتريد أن تميتها موتتين؟!»^(١).

فإذا كانت هذه رحمته ووصيته بالحيوانات والبهائم التي لا تعقل، فكيف سيكون حاله مع من كرمه الله بالعقل من البشر؟ ولهذا اكتفيت بذلك عن ذكر حاله مع الناس ورأفته بهم.

كل القلوب إلى الحبيب تميل	ومعي بذلك شاهد ودليل
أما الدليل إذا ذكرت محمداً	صارت دُمُوع العاشقين تسيل
هذا رسول الله هذا المصطفى	هذا لرب العالمين خليل
هذا الذي رد العيون بكفه	لما بدت فوق الخدود تسيل
هذا الغمامة ظللته إذا مشى	كانت ثقيل إذا الحبيب يقيل
صلّى عليك الله يا علم الهدى	ما حن مشتاق وسار دليل



(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤ / ٥٤)، والحاكم (٤ / ٢٥٧)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي والألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٦٤).



﴿ دلائل النبوة ﴾

في كلام الله وإعجازه غنية عن كل آية وكرامة، ومع ذلك فقد أيد الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعجزات وآيات بهرت كل من رآها، ثبتت بها الأخبار، ونقلها الصحابة الأخيار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومما ورد مما صح به النقل حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سرنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله يقضي حاجته، فلم ير شيئاً يستتر به، وإذا بشجرتين في شاطئ الوادي، فانطلق إلى إحدهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش - سريع الانقياد - الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالنصف مما بينهما قال: «التما علي بإذن الله»، فالتأمتا، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني التفاتة، فإذا برسول الله مقبلاً، وإذا بالشجرتين قد افترقتا كل واحدة منهما على ساق!!^(١).

ومن المعجزات التي أيده الله بها، أن المشركين سألوه أن يريهم آية، فأراهم القمر، فانشق حتى صار فرقتين نصفه على جبل أبي قبيس ونصفه الآخر على الجبل الذي أمامه^(٢)، وقد فسر بأنه المراد بقوله سبحانه ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (سورة القمر، الآية ١) ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة، وسبح الحصى في كفه، ثم وضعه في كف أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان فسبح، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام عنده وهو يؤكل، وسلم عليه الحجر والشجر ليالي بعث، وكلمته

(١) أخرجه مسلم (٣٠١٢).

(٢) أخرج البخاري بعضه (٦ / ١٤٢)، والإمام أحمد (٢٧ / ٣١٤).





الذراع المسمومة، وأصيبت رجل عبد الله بن عتيك الأنصاري، فمسحها فبرأت من حينها، وأخبر أنه يقتل أبي بن خلف في أحد، فخدشه خدشاً يسيراً فمات، وأخبر يوم بدر بمصارع المشركين فقال: «هذا مضرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مضرع فلان» فلم يعد واحد منهم مضرعه الذي سمّاه، وأخبر أن طوائف من أمته يغزون البحر، وأن أم حرام بنت ملحان منهم، فكان كما قال.

وقال لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنه سيُصيّبه بلوى» فقتل، وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قُتل وبمن قتله وهو بصنعاء اليمَن، وبمثل ذلك في قتل كسرى، ودعا لأنس بن مالك بطول العمر وكثرة المال والولد، وأن يبارك الله له فيه، فولد له مائة وعشرون ذكراً لصلبه، وعاش مائة وعشرين سنة.

وكان عتبة بن أبي لهب قد شق قميصه وآذاه، فدعا عليه أن يسلم الله عليه كلباً من كلابه، فقتله الأسد بالزرقاء من أرض الشام، وشكى إليه قحوط المطر وهو على المنبر، فدعا الله **عَزَّجَلَّ**، وما في السماء قزعة فثار سحاب أمثال الجبال، فمطروا إلى الجمعة الأخرى، حتى شكى إليه كثرة المطر، فجعل لا يشير للسحاب إلى ناحية إلا ذهب إليها، وأطعم الله أهل الخندق - وهم ألف - من صاع شعير وبهيمة، فشبعوا وانصرفوا والطعام أكثر مما كان.

ومسح ضرع شاة حائل لم ينز عليها الفحل، فحفل الضرع فشرب وسقا أبا بكر، وبدرت عين قتادة بن النعمان حتى صارت في يده فردها، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما، وتفل في عيني علي بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وهو أرمَدُ فبراً من ساعته، وأطعم في منزل أبي طلحة ثمانين رجلاً من أقراص شعير جعلها أنس في إبطه، حتى شبعوا كلهم، ثم رد ما بقي فيه.



ورمى الجيش يوم حنين بقبضة من تراب، فهزمهم الله عَزَّوَجَلَّ وقال بعضهم:
لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه تراباً وفيه أنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ (سورة الأنفال، الآية ١٧).

وكان هناك رجل أعرابي في البادية عند غنمه فهجم ذات يوم الذئب على الغنم
فأخذ شاةً، فلحقه الراعي فأخذها منه، فأفغى الذئب على ذنبه وقال: أتحرمني
رزقاً ساقه الله إلي! فقال الراعي: واعجباً ما رأيت كالיום ذئب يتكلم بكلام
الإنس! فقال الذئب: ألا أدلك على أعجب من ذلك؟ فقال الراعي: بلى، فقال:
رجل يشرب يخبر الناس خبر الأمم السابقة، فأتى الراعي فدخل المسجد فأسلم
ونطق بالشهادتين، وحدثه بقصة الذئب، فأمره النبي ﷺ أن يقوم على
المنبر فيحدث بها الصحابة، فقام وأخبرهم بها^(١)، وله ﷺ معجزات
باهرة، ودلالات ظاهرة، وأخلاق طاهرة، أكثر وأعظم مما ذكرت، اقتصرت على
ذكر بعض منها، وقديماً قيل: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.



(١) الأحاديث السابقة مما حسن إسناده أهل العلم أو صححوه، ولم أخرجهما لثلاث تكثر الحواشي، ينظر:
«دلائل النبوة» للبيهقي أبي نعيم و«صحيح السيرة النبوية» للألباني ولأكرم العمري، و«أعلام النبوة»
للماوردي.



﴿أَخْرَجَنِي الْجُوعُ﴾

في يوم قاتظ شديد الوَهَج والحرارة، أشعلت فيه حرارة الشمس جنبات المدينة وأرضها، وبعد الزوال حين قام قائم الظَّهيرة، إذا برسول الله يخرج في هذه الأثناء على غير عادته، فبينما هو يمشي إذا بصديق هذه الأمة أبو بكر ومعه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد لقياه في بعض الطُّرق، فتعجب كل منهم من صاحبه وخُروجه في هذا الوقت، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فلم يجده في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحدُّ اليوم أكرم أضيفاً مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدينة، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إياك، والحلوب»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر، وعمر: «والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»^(١).

فتأمل مَنْ هَؤُلَاءِ الْجُوعَى الذين أخرجهم الجُوع فلم يجدوا طعاماً يأكلونه، ولا شيئاً يسد مخمصتهم!

(١) أخرجه مسلم (٣ / ١٦٠٩).



إنهم من لو وزن إيمان كل واحدٍ منهم من غير صاحبيه لوزن كل إيمان هذه الأمة بعلمائها وعُبادها وشهادتها وصالحيتها!.

مَضَتْ حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسِيْطَةِ تَضْرِبِ أُرُوعِ الْأَمْثَلَةِ فِي الزُّهْدِ وَشَظْفِ الْعَيْشِ، وَخُلُو الْيَدِ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا، يَأْكُلُ يَوْمًا وَيَجُوعُ أَيَّامًا، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَلْقِ الَّذِي كَانَتْ تَجِبِي لَهُ الْأَمْوَالُ فَلَا يَبْقِي مِنْهَا شَيْئًا فِي يَدِهِ.

وَرَاوَدَتْهُ الْجَبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمٍ
وَأَكَدَ الزُّهْدَ فِيهَا مِنْ ضَرُورَتِهِ إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ

دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي غُرْفَةٍ لَهُ، فَوَجَدَهُ مُضْطَجِعًا عَلَى حَصِيرٍ بَالٍ أَكَلَ الْفَقْرَ أَطْرَافَهُ، قَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِهِ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مَحْشُوءَةٌ لَيْفًا، وَفِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ قَبْضَةٌ مِنْ شَعِيرِ نَحْوِ الصَّاعِ، فَانْخَرَطَتْ دُمُوعُ ابْنِ الْخَطَّابِ وَغَلَبَهُ الْبُكَاءُ لِرِقَّةِ حَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى دُمُوعِ عَمَرٍ: «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» فَقَالَ عَمَرُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خَزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَكُسْرَى وَقِيَصَرٌ عَلَى سُرُرِ الذَّهَبِ وَفُرُشِ الدِّيْبَاجِ وَالْحَرِيرِ، وَفِي الثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ!! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَلَيْكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَبِيبَاتُهُمْ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟!»^(١) فَقَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لَوْ اتَّخَذْتُ فَرَاشًا أَلِينُ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، مَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبِ سَارٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظِلْ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩)، ونحوه عند البخاري (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٤)، قال ابن كثير: إسناده جيد. البداية والنهاية (٥/٢٤٨).





وهذه عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دعاها عروة ابن الزبير ابن أختها للغداء فلمّا قدمت ونظرت إليه، التفتت ناحية الجدار وأجهشت بالبكاء، فقال لها عروة: ما بك يا أمّاه فقد كدّرت علينا الطعام، فقالت: يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار، وما شبع ثلاثة أيام من طعام بُر حتى فارق الدنيا، فقال عروة: فما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء^(١).

يقول عقبة بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العصر فأسرع وأقبل يشق الناس من سرعته، ودخل إلى بيته، ثم لم يكن بأوشك من أن خرج فقال: «ذكرت شيئاً من تبر كان عندي فخشيت أن يحبسني فقسمته»^(٢)، هذا الذي قسم التبر بين الناس هو الذي تقول عائشة عن حال أهله: ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثاً حتى مضى لسبيله، وما أكل آل محمد أكلتين في يومٍ واحدٍ إلا إحداهما تمر، ويقول أنس: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد أخفت في الله ما لم يخف أحد، وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد، ولقد أتى علي ثلاثون ما بين يومٍ وليلة، ومالي ولبلال من الطعام إلا شيء يواريه إبط بلال»^(٣).

كان سيد العرب، ومالك الجزيرة يملأ بالأموال صحن المسجد، فيقسمها على الناس إلى آخر درهم، فإذا دخل إلى بيته نام على جلد محشو بليف كما تقول عائشة، كان فراشه من آدم حشوه ليف.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٩٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٣٣) وصححه ابن القيم. عدة الصابرين (ص ٢٩٩).



وليس الكلام هنا عن ذم المال والكسب، فالمال لا يمدح ويذم لذاته، وإنما ينظر إلى حال صاحبه معه، فإن أخذه من حرام، وأشغله عن واجب، وأنفق في محرم كان مذموماً، وإن أخذه من حلال، واستعان به على الخير والاستغناء عما في أيدي الآخرين كان ممدوحاً، كما قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مبيناً ذلك: «نعماً بالمال الصالح للرجل الصالح»^(١).

وقد كان نصف العشرة المبشرين بالجنة أثرياء، وإنما الكلام هنا عن زهد النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وبعده عن الدنيا، وشطف العيش الذين كان يعيشه.

يقول السير وليم موير: كانت السهولة صورته من حياته كلها، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقل تابعيه، فالتواضع والشفقة، والصبر والإيثار والجود، صفات ملازمة لشخصه، وجالبة لمحبة جميع من حوله، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنًا، ولا هدية مهما صغرت، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه بإقباله وإن كان حقيراً.

ولسنا في سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحاجة إلى أحد، فقد اختصه الله من بين الرسل بوضوح حياته وجلالها من جميع النواحي، وإنما ذلك لبيان تلك العظمة وذلك السمو الذي بهر الأعداء قبل الأصدقاء، حتى أقرت به أقلامهم ونطقت بذلك ألسنتهم، وذلك يحفز العزائم، ويشير الكوامن، لدراسة سيرته ليكون حياً في قلوبنا كما كان حياً بين أصحابه، وليعيش المؤمن في كل حركة ونبضة وفكرة من حياته وفق ما عاشه رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، متبعاً مقتفياً آثاره وستته، **كما قال أبو علي الروذباري:** رَوَّاح نَسِيم مَحَبَّة الرُّسُول تَفُوح من المحبين

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٩ / ٢٩٩).





وإن كتموها، وتغلب عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدل عليهم وإن ستروها^(١).

فإن فضل رسول الله ليس له	حدٌ فيعرب عنه ناطقٌ بقم
كالشمس تظهر للعينين من بعد	صغيرةً وتكل الطرف من أمم
أكرم بخلق نبي زانه خلق	بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في ترفٍ والبدر في شرف	والبحر في كرمٍ والدهر في همم



(١) طبقات الأولياء (١ / ٥٨).



﴿مقام التَّعَبُدِ﴾

حينما تعيش مع سيرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتنقل بين رياضها وحقولها، وترى جهاده وبذله وتضحيته، ثم تقلب صفحات دعوته وهمّه وتعليمه، ثم تتمعن في قيامه بأمور الناس وقضاء حاجاتهم وحل مشاكلهم، ثم تنظر في مقامه مع أهله وقضاء حاجاتهم والقيام بخدمتهم، وكل واحدٍ منها لو أنيطت على شمّ الجبال، وكرام الرجال لما أطاقوا حملها، فتظن عند ذلك أنه قد مضى وقته للناس فلم يبق منه شيء، وتنسى عندها أبرز صفة كانت تعيش بين جنبه من النُكْ والتَّعَبُد والافتقار والإلحاح والتضرع إلى ربه، فقد كان يجد في العبادة قرة عينه، وطمأنينة نفسه.

«وانك لتقف مشدوهاً أمام ذلك الجمع العجيب بين النُكْ الذي بلغ أرقى

مراتب التَّعَبُد، وبين القيام على أمور الدنيا التي كان يعيش فيها بكدّه، ويعول كثيراً من الأهل والفقراء، ويناضل أمة بكاملها، ويسوس دولةً فتيةً في وجه العالم، يوفد إلى الملوك ويدعوهم، ويستقبل الوفود ويكرمهم، ويبعث السرايا ويقودها، ويجادل من حوله من أهل الأديان وأهل السلطان، ويهيئ للنصر، ويحتاط للهزيمة، ويبعث العمّال، ويجبي الأموال، ويقسمها بنفسه ويشرع للناس دين الله، فيفصل المجمل من الوحي، ويوضح الغامض، ويرسم السنن، وهو في كل ذلك يؤدي عمله اليومي، وبين هذه الهُوم والمشَاغل يتجلى محمدٌ الناسك العابد الذي هو أعظم انقطاعاً إلى الله واتصالاً به ممن انقطعوا إليه في رؤوس الجبال».





كَانَتِ الصَّلَاةُ أُنْسَهُ وَمِيدَانَهُ، وَرُوحَهُ وَرِيحَانَتَهُ، وَنَزْهَتَهُ وَبَسْتَانَهُ، وَنَعِيمَهُ
وَعُنْوَانَهُ، فَكَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى، وَكَانَ يَقُولُ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)،
وَيَقُولُ لِبَلَالٍ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْحَنًا بَهَا»^(٢).

دَخَلَ عَطَاءٌ وَابْنُ عَمْرٍو عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: حَدَّثَنَا بِأَعْجَبِ
شَيْءٍ رَأَيْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا دَخَلَ
عَلَيَّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ لِرَبِّي» فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ
قُرْبَكَ، وَأَحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ لِرَبِّكَ، فَقَامَ إِلَى الْقُرْبَةِ فَتَوَضَّأَ وَلَمْ يَكْثُرْ صَبَ الْمَاءِ، ثُمَّ قَامَ
يُصَلِّي، فَبَكَى حَتَّى بَلَ لِحَيْتِهِ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى
جَنْبِهِ فَبَكَى، حَتَّى إِذَا أَتَى بَلَالٌ يُؤْذَنُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَبْكِيكَ
وَقَدْ غُفِرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبُكَ مَا تَقْدُمُ وَمَا تَأْخُرُ فَقَالَ: «وَيَحْكُ يَا بَلَالُ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي
وَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾» (سورة آل عمران، الآية ١٩٠) الْآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْلَ لِمَنْ قَرَأَهَا
وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»^(٣).

وَصَلَّى مَرَّةً فِي قِيَامِ اللَّيْلِ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، يَقُولُ حُذِيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقُلْتُ يَرْكَعُ
عِنْدَ الْمِائَةِ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى، فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ
بِهَا، فَافْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ حَتَّى خَتَمَهَا، يَقْرَأُ مَتْرَسَلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةِ سُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ
بِآيَةِ تَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ سَجَدَ فَكَانَ سَجُودُهُ نَحْوًا
مِنْ رُكُوعِهِ^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٣٣ / ٢١)، والنسائي (٦١ / ٧)، وأبو يعلى (٣٥٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٨ / ٧)، وصححه العراقي والألباني.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٦٠)، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٢).



وهذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: صَلَّيتُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم حتى هَمَمْتُ بأمر سوء! فقالوا له: وبماذا هَمَمْتَ؟ فقال: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأُدْعَهُ^(١)، من شدة إطالته للصلاة.

نَفْسُ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ تَطْلُعُ وَفُؤَادُهُ مِنْ حُبِّهِ يَتَقَطَّعُ
عِزُّ الْحَبِيبِ إِذَا خَلَا فِي لَيْلِهِ بِحَبِيبِهِ يَشْكُو إِلَيْهِ وَيَضْرَعُ
وَيَقُومُ فِي الْمَحْرَابِ يَشْكُو بَنَّهُ وَالْقَلْبُ مِنْهُ إِلَى الْمَحَبَّةِ يَنْزَعُ

ولقد سَرَتْ نَسَمَاتُ الْإِيمَانِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ جَسَدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَعَلَقَ قَلْبَهُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ يَذْكُرُهُ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ، وَاثِقٌ بِوَعْدِهِ، مَرَاقِبٌ لَهُ، مُطِيعٌ، خَائِفٌ، مُحِبٌّ، خَاشِعٌ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، مَعْظَمُ لِحُرَمَاتِهِ.

فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ يَحِبُّهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَمَّ الصَّالِحَاتُ»^(٢).

وَإِذَا أَرَادَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»^(٣)، وَإِذَا فَرَّغَ مِنْهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودِعٍ، وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبَّنَا»^(٤).

وَإِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْبَجَاتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (١٠٨٤) مسلم (٣٧٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٤٢).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٤) مسلم (٢٧١٠).





- وإذا استيقظ قال:** «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(١).
- وإذا لبس ثوباً جديداً قال:** «الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقني من غير حولٍ مني ولا قوة»^(٢).
- وإذا عطس قال:** «الحمد لله»^(٣).
- وكان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفرٍ كبيرٍ ثلاثاً ثم قال:** «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين...»^(٤).
- وإذا رأى مبتلى قال:** «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً»^(٥).
- وكان إذا علا ثنيةً كبر الله، وإذا هبط سبّح.**
- وإذا نزل منزلاً قال:** «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(٦).
- وإذا سمع المؤذن قال مثل ما يقول فإذا فرغ قال:** «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمدٍ رسولاً، وبالإسلام ديناً»^(٧).
- وإذا حَزَبَه أمرٌ صلى**^(٨).

(١) أخرجه مسلم (٢٧١١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٣١١٥) مسلم (٢١٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٤٢) مسلم (٥٣٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٣١) وصححه ابن القيم في الزاد (٤١٨/٢).

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٧) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٨) أخرجه أبو داود (١٣١٩) وحسنه ابن حجر في الفتح (٢٠٥/٣).



وإذا قام من الليل قرأ الإحدى عشرة آية الأخيرة من سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) ﴿١﴾.

(سورة آل عمران: الآية ١٩٠).

وإذا أصبح قال: «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا وبك نموت، وإليك النشور».

وإذا أمسى قالها كذلك: «اللهم بك أمسينا...» (٢).

وإذا كربه أمر قال: «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث» (٣).

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام في جميع أحواله وأوقاته، يتنقل في رياض الذكر وبساتين المعرفة، فإذا فرغ من عبادة شرع في ذكر، فإن فرغ منه وجدته في برٍّ وصدقة وإحسان، وهو في سفره وجهاده يعلم ويدعو إلى الله، فإذا لم يكن في هذه وجدته مع أصحابه يمازحهم ويحل مشكلاتهم، فإذا قام منهم دخل فكان في خدمة أهله، فلم تَمْض لحظة ومضة من حياته إلا في خير وطاعة وقربة من الله عز وجل ويصف عبدالله بن رواحة ليله فيقول:

بَيْتٌ يُجَانِي جَنْبَهُ عَنْ فَرَّاشِهِ إِذَا اسْتَقَلْتُ بِالْمَشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

لقد ربى نفسه على تلك الحال فتربى عليها أصحابه -رضوان الله عليهم- فهذا فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم عليه معاوية بن حديج رضي الله عنه بفتح الإسكندرية، فلما أناخ راحلته خرجت جارية لعمر رضي الله عنه فرأته

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٠) مسلم (٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٦٨) وصححه ابن القيم في زاد المعاد (٢/٣٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/٣١٣).





وعليه أثر السفر، فأدخلته فقربت إليه خبزاً وزيتاً وتمراً، فأكل، فقال عمر لمعاوية
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: إن أمير المؤمنين
 قائل، قال عمر: بئس ما قلت أو بئس ما ظننت، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية،
 ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية! ^(١).

إِذَا قُلْتَ لَيْتَ فَهُوَ أَمْضَى عَزِيمَةً وَإِنْ قُلْتَ غَيْثٌ فَهُوَ أُنْدَى وَأَجْوَدُ
 هُوَ الْمَقْتَفِي أَمْرَ الْإِلَهِ وَإِنَّهُ لِيَصْدُرَ عَنْ أَمْرِ الْإِلَهِ وَيُورِدُ
 مَنَاقِبَ تَحْصَى دُونَهَا عَدَدَ الْحَصَى بِهَا يَغْبِطُ الْحُرُّ الْكَرِيمَ وَيَحْسَدُ



(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص ١٥٢)، وأورد قريبا منه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧٣ / ٤٤)



﴿مقام الوفاء﴾

من جميل الخصال، وشريف الخلال، حفظ العهد والود والإحسان، فالحر من راعى وداد لحظة، والكريم إذا أكرمه ملكته، ولا ينسى أولو الفضل لأصحاب الفضل فضلهم، و«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(١).

وقد كان لرسول الله ﷺ في هذا المقام القدر المعلى، فمن عظيم وفائه ما كان منه في حق ميت ذهب لن يعلم بما يفعله رسول الله من أجله، فتحدثنا أمنا أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فتقول: «ما غرت على أحد من أزواج النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما بي أن أكون أدركتها؛ وما ذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله ﷺ لها، وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بها صدائق خديجة فيهديها لهنّ، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»^(٢).

وكان إذا أتى بالشيء يقول: «اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت تحب خديجة»^(٣).

واستأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فغرت منها^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٩٢ / ١٣)، والترمذي (٣٠٠٥) وصححه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨١٨).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٢٨)، والحاكم في المستدرک (١٩٣ / ٤) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).



وجاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عند عائشة فقال لها رسول الله ﷺ: «من أنت؟» قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: «بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»^(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وفي هذا كله دليل لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلك الصاحب^(٢).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: ومما كافأ النبي ﷺ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها، فروى مسلم عن عائشة قالت: «لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت».

وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار، وفيه دليل على عظم قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها، لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين، لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاماً، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاماً، وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها فيها من الغيرة الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها، ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) وصححه ووافقه الذهبي والألباني، وخالفهم ابن حجر فضعه.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٣٧).



ومن جملة وفائه ما كان في حق عمه أبو طالب، فإنه ما زال يدعوه حتى وهو في فراش الموت، فلما مات على الكفر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (سورة التوبة، الآية ١١٣)، ومع ذلك شفع له عند ربه وأخبر أنه «في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١).

ومن وفائه ما كان في تعامله مع أبناء ذي الجناحين، جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما استشهد، فقال لأهله: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً؛ فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم»^(٢).

ثم أتاهم بعد ثلاثة أيام لما خف مصابهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا إلي ابني أخي» قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فجيء بنا كأننا أفرخ، فقال: ادعوا إلي الحلاق، فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبيهه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيهه خلقي وخلقي» ثم أخذ بيدي فأشالها، فقال: «اللهم اخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه»، قالها ثلاث مرار، قال: فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تُفرح له، فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!»^(٣).

ومن وفائه لصاحبه في الغار، والذي كان أسبق الرجال للإيمان به، أنه حصل

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠١)، ومسلم (٢٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٤ / ٣) والترمذي (٣١٢ / ٢) وابن ماجه (٥٣٧ / ٢)، وحسنه ابن كثير، وصححه ابن الملقن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٩ / ٣)، وصححه الذهبي. تاريخ الإسلام (٤٣٠ / ٥).





مرة خلاف عارض بين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلت: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله»^(١).

ولم ينس الوصية به حتى وهو في مرضه الذي مات فيه، فقد خرج وهو عاصب رأسه بخرقه، فقع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد، غير خوخة أبي بكر»^(٢).

وقد سبق معنا موقفه مع الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حفظ جميل نصرتهم حين قال: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار»^(٣).

ومن وفائه لهم أن كانت آخر وصية على المنبر في الإحسان إليهم وإكرامهم.

مر أبو بكر والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمجلس من مجالس الأنصار وهم يكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منا، فدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد عصب على

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).



رأسه حاشية برد من المرض، فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعييتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»^(١).

ومن وفائه لأصحابه معرفة قدرهم والذب عنهم، كما في قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** منوهاً بذلك: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

بل بلغ وفاؤه لرجل مات على الكفر وهو المطعم بن عدي، لأنه كان أجاره لما رجع من الطائف إلى مكة، ثم مات قبل وقوع غزوة بدر، فلما جمع الأسرى في بدر قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»^(٣).

ولما سأل هرقل أبا سفيان وكان إذ ذاك مشركاً قبل أن يسلم: «هل يغدر محمد» فقال أبو سفيان: «لا»^(٤).. فهذه شهادة أعدائه قبل أصحابه.

ومن وفائه لأمته ما أخبر أن «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»^(٥).

بل بلغ من وفائه حفظ حق البهائم، ففي غزوة الحديبية وقفت ناقته القصواء

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٤٠)، ومسلم (١٧٧٣).

(٥) أخرجه مسلم (١٩٩).





ولم تتحرك، وكانت قبل ذلك لا تسبق، فقالوا: «خَلَّتِ الْقُصُوءُ، خَلَّتِ الْقُصُوءُ»
- أي: حُرنت ولن تقوم - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منافحاً عنها وأنه ليس ذلك من
عادتها: «مَا خَلَّتِ الْقُصُوءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»^(١).

ومن أنبل معاني الوفاء ما صنعه مع كفار قريش لما أراد الهجرة للمدينة،
وكانوا يضعون أماناتهم عنده لصدقه وأمانته، ومع أنهم آذوه وطردهوه وعذبوا
أصحابه وهموا بقتله، إلا أنه أقام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاث ليال بعد
هجرته، حتى أدى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الودائع التي كانت عنده للناس،
حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

ولله در حسان لما قال منافحاً عنه:

هَجُوتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا رَسُولَ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوِفَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَتِي وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ



(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١)، وينظر في شرح الحديث: فتح الباري لابن حجر (٥ / ٣٣٥).
(٢) أخرجه البيهقي (٢٨٩ / ٦)، وقال ابن حجر: سنده قوي، وحسنه الألباني. التلخيص الحبير (٣ / ٢١٥)، إرواء الغليل (٥ / ٣٨٤).



﴿مَقَامُ الشَّفَاعَةِ﴾

لَقَدْ كَانَتْ جَمِيعُ الْمَقَامَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا، وَأَجَلَتْ النَظَرَ فِيهَا، وَتَنَقَّلَتْ فِي بَسَاتِينِهَا، تَحْكِي وَتَبْسُطُ مَا بَوَّاهُ اللَّهُ مِنْ مَنْزِلَةٍ، وَشَرَفَهُ مِنْ مَكَانَةٍ وَأَعْلَاهُ مِنْ مَرْتَبَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا هَذَا الْمَقَامُ فَيَصُورُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي تَرَسَّمُ فِيهِ لُوحَاتُ الشَّرَفِ، وَتَقَسِّمُ فِيهِ تِجَانُ الْوَقَارِ، وَتَرْفَعُ فِيهِ لِأَقْوَامٍ مَرَاسِمُ الْعِزِّ، وَيَعْلُو أُنَاسٌ عَلَى مَنَابِرِ النُّورِ، وَتَنْثَرُ فِيهِ الْأَعْطِيَّاتُ وَالْهَبَاتُ وَالرَّحِمَاتُ وَالنَّفَحَاتُ، هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَانْقَادَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَمَّا مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَأَمْضَى حَيَاتِهِ فِي اللَّهْوِ وَالْمُنْكَرِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَتَقَامُ لَهُ الزَّبَانِيَةُ، وَتَسْعَرُ لَهُ النَّارُ، وَيَقَامُ فِي الشَّمْسِ حَتَّى يُلْجِمَهُ الْعَرَقُ، وَيَصَّبُ عَلَيْهِ تَبَكِيتُ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، وَيُكْوَى بِلَهَبِ الدُّلِّ وَالْعَارِ.

ففي ذلك الموطن وذاك المقام يذلل أقوام ويُعز آخرون، ويرفع أناس، ويذل غيرهم، لأنه لا عزير إلا من أعزه الله، ولا شريف إلا من رفعه الله، ومن يهن الله فماله من مكرم.

وفي تلك اللحظات، وعند ذلك الجمع، تنقطع جميع العلائق والأنساب والأسباب، فلا أحد يتكلم إلا بإذن المالك الجبار، ولا يشفع إلا بأمره، وتنقطع عنده موازين الأرض، ومقاييس الدنيا، فلا أمر ولا ناهي، ولا مدبر ولا مُصَرِّف، ولا قَادر ولا قاهر، ولا أمير ولا ملك، ولا سيّد ولا مُطَاع، إلا الملك الواحد الصمد، ولما أن تدرك عَظَمَةَ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ وَخَطُورَتَهُ، وَتَعْرِفَ مَعَايِيرَ الْعُلُوِّ وَالسُّمُوِّ فِيهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لَبِينَا أَجَلَ وَأَعْظَمَ مَقَامَ فِيهِ، وَأَرْفَعَ مَرْتَبَةً وَمَنْزِلَةً، فَلَا أَحَدَ مِنَ الْخَلَائِقِ يَدَانِيهِ وَلَا يَضَاهِيهِ...





يَا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفَاعَةِ وَحَدَهُ وَهُوَ الْمُنَزَّهَ مَا لَهُ شَفَعَاءُ
عَرْشُ الْقِيَامَةِ أَنْتَ تَحْتَ لَوَائِهِ وَالْحَوْضُ أَنْتَ حَيَالُهُ السَّقَاءُ
أَنْتَ الَّذِي نَظَّمُ الْبَرِّيَّةَ دِينُهُ مَاذَا يَقُولُ وَيُنْظِمُ الشُّعْرَاءُ

وَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ وَهُوَ يَحْدِثُ عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعَ وَكَانَتْ تَعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ - يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي، وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرُونَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَعَلِمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنْ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمَ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ، وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ،



اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته، وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى بن مريم.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي **عَزَّوَجَلَّ**، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع.

ففي هذه الحال، وعند هذا المقام، الخلائق كلها مشرَّبة تنظر في هذا الموقف! وتتأمل هذا المشهد! ورب العزة يفتح أبواب الإجابة أمام هذه الدعوات التي يبتهل فيها سيد الثقلين، فما تظن أن تكون هذه الدعوات؟ وما ذاك الطلب الذي سيطلبه؟ ولأجل من سيسفع ذاك اللسان؟ إن أول كلمة ينطق بها ويتفوه بها لسانه





هي: «أمتي يا رب أمتي يا رب!» فلم ينس فداً له نفسي ومالي وأهلي في ذلك الموقف العظيم، والجمع الهائل، والكرب الشديد، والمقام المذهل، أمته - عليه أزكى صلاة وسلام - بل كانت أول دعوة وشفاعة قالها وسأل الله إجابتها، هي الدعوة لأمته، فهل رأيت حُباً ورحمةً وصدقاً أعظم وأجل من هذا؟ فيقول عند ذلك ربُّ العِزة والجلال: «يا محمد! أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وبُصرى»^(١).

وهذا هو المقام المحمود الذي وعده النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٧٩).



(١) أخرجه البخاري (٣١٦٢) مسلم (٣٢٧)، وهو من الأحاديث المتواترة.



﴿وَرَحَلَ الْحَبِيبُ!!﴾

لما تَكَامَلَت الدَّعْوَةُ، وَكُمُلَت الرِّسَالَةُ، وَسَيَطَرَ الْإِسْلَامُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، بَدَأَتْ طَلَائِعُ التَّوْدِيعِ، وَمَلَامَحُ الْفِرَاقِ، وَمَعَالِمُ الْوَدَاعِ تَظْهَرُ وَتُلَوِّحُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ سُورَةَ النَّصْرِ لِيَبْلُغَهُ قَرَبُ أَجَلِهِ، وَدُنُو رَحِيلِهِ، فَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْدِيعِ الْأَمْوَاتِ قَبْلَ الْأَحْيَاءِ، فَعَنِ أَبِي مُوَيْهَبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ هَذَا الْبَقِيعِ، فَاَنْطَلِقْ مَعِي» فَاَنْطَلَقْتُ مَعَهُ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ قَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنَأَ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ، أَقْبَلْتُ الْفَتَنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، يَتَّبِعُ آخِرُهَا أَوَّلُهَا، الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأَوَّلَى» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: «يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، فَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّةِ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا أَنْتَ وَأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ» ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ وَانْصَرَفَ^(١).

وَذَهَبَ لِشُهَدَاءِ أَحَدٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَدَعَا لَهُمْ، وَفَاءً لِمَا بَذَلُوهُ وَقَدَّمُوهُ مِنْ أَرْوَاحِهِمْ، تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَقِيعِ وَجَدَنِي وَأَنَا أَجِدُ ضِدَاعًا فِي رَأْسِي، وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهُ، فَقَالَ: «بَلْ أَنَا - وَاللَّهِ يَا عَائِشَةُ - وَارَأْسَاهُ» قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «وَمَا ضَرُّكَ لَوْمْتُ قَبْلِي، فَقُمْتُ عَلَيْكَ وَكَفَنْتُكَ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْكَ وَدَفَنْتُكَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بَكَ لَوْ قَدْ فَعَلْتَ

(١) أخرجه أحمد (٢٥ / ٣٧٦)، وحسنه ابن عبد البر في الاستذكار (٢ / ٦٤٧)، وفيه ضعف. ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧ / ١٦٢).



ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك! قالت: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

ثم ثقل به المرض فجعل يسأل أزواجه: «أين أنا غداً» يريد بيت عائشة، ففهم من مراده فأذن له حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخط قدماه في الأرض، حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته، وكانت تقرأ عليه المعوذات والأدعية التي حفظتها منه، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده^(٢).

فلما كان السبت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس فأمهم، فكان الصحابة رضي الله عنهم يأتون للصلاة ويمرون في مجالس المدينة ولا يرون حبيبهم، فتوافدوا عليه يعودونه ويسلمون عليه، ويطمنون على صحته، فلما كان يوم الأحد أقبلت فاطمة ابنته تمشي كأن مشيتها مشية النبي صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه، وكان إذا دخلت عليه قام وسلم عليها ورحب بها وأجلسها مكانه، وإذا دخل قامت وسلمت عليه ورحبت به وأجلسته مكانها، ولكنه هذه المرة لم يستطع القيام، فرحب بها وهو جالس وأجلسها عن يمينه، ثم أسر إليها حديثاً فبكت، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت، تقول عائشة: فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن، فسألتهما عما قال لها فقالت فاطمة: ما كنت لأفشي سر رسول الله، فلما قبض النبي سألتها فقالت: أسر إلي «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥١٥٦)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٥).



أول أهل بيتي لحاقاً بي» فبكيت، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين» فضحكت لذلك^(١).

ودخل يوم الاثنين: فبينما أبو بكر يصلي بالصحابة صلاة الفجر إذا بالسّتر يرفع فأطل الحبيب منه وهو يتسّم، يقول أنس: فهَمَمْنَا أن نفتن من الفرح، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصّف ويتقدم رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فأشار إليه أن أتموا صلاتكم^(٢).

وكان قبل ذلك قد اتقدت حرارة الحمى في بدنه، واشتد عليه الوجع فقال: «هَرِيقُوا علي سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم» فأقعدوه في مخضبٍ وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: «حسبكم» وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد مسدلاً ملحفةً على منكبيه، قد عصّب رأسه بعصابة حتى جلس على المنبر، ثم قال: «أيها الناس إلي» فتأبوا إليه، فخطبهم فكان مما قال: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا، فعجب الناس من بُكاء أبي بكر وجعلوا يقولون: ما لهذا الشيخ يبكي! ولم يعلموا أن المخير هو رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

فقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «لا تبك يا أبا بكر، إن من آمن الناس علي في صحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذته خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقَى في المسجد خوخةٌ إلا سُدت غير خوخة أبي بكر»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٦) مسلم (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩١) مسلم (٢٣٨٢).





ورجع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فجعل يزاد عليه الوجع وهو يطرح خميصه له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا^(١). ودخل عليه في تلك الحال عبد الله بن مسعود فإذا هو يوعك وعكاً شديداً فقال: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً؟ فقال: «نعم إني لأوعك كما يوعك الرجلان منكم» فقال: ذاك أن لك أجران؟ فقال: «نعم»^(٢)، وكان أيام مرضه يوصي أمته بأعظم شعيرة من شعائر الدين فيقول: «الصلاة... الصلاة وما ملكت أيمانكم»^(٣)، حتى جعل يجلسها في صدره وما يفيض بها لسانه.

نَسِينَا فِي وَدَادِكَ كُلِّ غَالٍ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَغْلَى مَا لَدَيْنَا
نُلَامُ عَلَى مَحَبَّتِكَ وَيَكْفِي لَنَا شَرَفُ نُلَامٍ وَمَا عَلَيْنَا
وَلَمَّا نَلَقْنَا لَكِنْ شَوْقًا يُذَكِّرُنَا فَكَيْفَ إِذَا التَّقِينَا
تَسَلَّى النَّاسَ بِالدُّنْيَا وَإِنَّا لَعَمْرُؤُا اللَّهُ بَعْدَكَ مَا سَلَيْنَا

وَأَزَفَتِ السَّاعَةُ التي يذل فيها الجبار، ويُذعن فيها المتكبر، ويضعف فيها القوي، **ويفتقر فيها الغني**، وبدأت لحظات الاحتضار، وقربت ساعات الرحيل، وحانت لفته الوداع، فوالله لو سألت الأفلام بحبرها، ونطقت الشفاه بالستتها، وأعطيت الأدباء أزمّة الفصاحة، وأعنته البلاغة على أن يصوروا عظمة تلك اللحظة، وكربة ذلك الخطب، وفداحة تلك المصيبة، لما جاوزوا أوراقيهم وآذانهم، فبأي

(١) أخرجه البخاري (١٢٦٥) مسلم (٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٤٢) مسلم (٢٥٧١).

(٣) أخرجه أحمد (٤٤ / ٨٤)، وصححه البيهقي في دلائل النبوة (٧ / ٢٠٥)، وجوده ابن الملقن في شرحه للبخاري (٦٤٥ / ٢١).



قَلَمَ وَبَأيَّ عِبَارَةٍ، وَبَأيَّةِ كَلِمَةٍ، أُسْطَرَّ خَلِجَاتِ الْفُؤَادِ، وَمَا يَحِيطُ بِالْمَشَاعِرِ، وَمَا يَشِيرُ كَوَامنِ النَفْسِ، وَعَوَاطِفِ الْحَسِّ، أَمَامَ فِرَاقِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ، وَذَلِكَ الْجَسَدِ الطَّاهِرِ، فَرحَمَاتِ رَبِّي عَلَى تِلْكَ الْعَيْنِ الَّتِي طَالَمَا سَهَرَتْ وَبَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْيَدِ الَّتِي بَذَلَتْ النَّدَى وَالْخَيْرَ وَالْمَعْرُوفَ، وَجَاهَدَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْقَدَمِ الَّتِي تَفْطَرَتْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَذَلِكَ اللِّسَانِ الَّذِي مَا فَتَى مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَذَاكَ الْجَسَدِ الَّذِي حَمَلَ الْمَكَارِهِ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا فَسَمِيَ بِهَا لِلْمَجْدِ حَتَّى بَلَغَ غَايَتَهُ، وَرَكَزَ فِيهِ رَايَتَهُ.

فَأَسْنَدَتْهُ عَائِشَةُ عَلَيْهَا، وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ سَحرِهَا وَنَحْرِهَا، فَجَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ،
وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكُوءَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يَدْخُلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمَسِّحُ بِهِ وَجْهَهُ وَيَقُولُ:
«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنْ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٌ»^(١).

وَمَا عَدَا أَنْ فَرَّغَ مِنَ السَّوَاكِ الَّذِي بِيَدِهِ، وَكَانَ آخِرَ سُنَّةِ فَعْلِهَا، وَلَمْ يَغْفَلَ
السِّنَنَ الَّتِي يَحِثُّ النَّاسَ عَلَيْهَا وَلَوْ دَقَّتْ حَتَّى وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَصِيبَةِ، رَفَعَ
أَصْبَعَهُ وَشَخَّصَ بَصَرَهُ نَحْوَ السَّقْفِ، وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ، فَأَصْغَتْ إِلَيْهِ عَائِشَةُ فَإِذَا
هُوَ يَقُولُ: «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ،
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، اللَّهُمَّ
الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(٢)، وَكَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَخَيَّرُونَ عِنْدَ الْمَوْتِ بَيْنَ
الْبَقَاءِ وَالْوَفَاةِ

رُوحٌ دَعَاها لِلوَصَالِ حَبِيبُهَا فَسَعَتْ إِلَيْهِ تُطِيعُهُ وَتُجِيبُهُ
يَا مُدْعِي صِدْقَ الْمَحَبَّةِ هَكَذَا فَعَلَ الْحَبِيبُ إِذَا دَعَاهُ حَبِيبُهُ

(١) أخرجه البخاري (٤١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨٤).





ولما كان يتغشاه الكرب كانت ابنته فاطمة عند رأسه فقالت: واكرب أبتاه! فقال لها: «ليس على أبنك كربٌ بعد اليوم» فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن لقيت أنسًا فقالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب! (١).

وتسرّب الخبر فأظلمت المدينة على أهلها، واجتمع الناس في المسجد، وقد بلغ بهم الهول والذهول مبلغه، ثم جاء أبو بكر فرفع الحجاب فنظر إليه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل رأسه فحدر فاه، وقبل جبهته، ثم قال: وا نبياه، ثم رفع رأسه ثم حدر فاه وقبل جبهته، ثم قال: وا صفياه، ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبله وقال: وا خليلاه (٢)، وقال: بأبي أنت وأمي طُبتَ حياً وميتاً، ما كان الله ليُذيقك الموت مرتين، أما المودة التي كُتبت عليك فقد مِتَها، ثم خرج ودخل على الناس في المسجد، فإذا عمر قائم يخطب ويقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى، وإنه ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، ووالله ليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، يزعمون أنه مات، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٤٤) يقول عمر: والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت أنه الحق، فعُقرت حتى

(١) أخرجه البخاري (٤١٩٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٥ / ٤٣) وقال الألباني: صحيح على شرط مسلم. إرواء الغليل (٣ / ١٥٧).



ما تُقَلِّني قَدَمَائي، وَحَتَّى أَهْوَيْتَ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد مَاتَ، وَيَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعَ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا^(١).

كَذَّا فَلِيَجَلِ الْخَطْبُ وَلِيَفْدَحَ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لَعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَأْوَهَا عُذْرُ
تُوفِيَتِ الْأَمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ
نَوَى طَاهَرَ الْأَرْدَانَ لَمْ تَبَقْ رَوْضَةٌ عَدَاةٌ ثَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

ثُمَّ اجْتَمَعَ الْأَنْصَارُ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَأَرَادُوا أَنْ يَنْصَبُوا الْخَلِيفَةَ مِنْهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ، فَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُمْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعُوهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ وَأَرَادُوا غَسْلَهُ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَنْجَرِدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا نَجَرِدُ مَوْتَانَا أَمْ نَغْسِلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَذِقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَمَهُمْ مَكْلَمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لَا يَذَرُونَ مَنْ هُوَ: أَنْ اغْسِلُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ، يُصْبُونَ الْمَاءَ فَوْقَ الْقَمِيصِ، وَيَذْلُكُونَهُ بِالْقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ^(٢) ثُمَّ تَوَلَّى دَفَنَهُ: عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَالْفَضْلُ، فَلَمَّا دَفَنُوهُ دَخَلَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ أَرْسَالًا يَصَلُّونَ عَلَيْهِ كُلُّ يَصَلِّي وَحْدَهُ، فَيَقْفُونَ عَلَيْهِ وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّ قَدْ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَنُصَحَ لِأَمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ، وَأُوْمِنَ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَاجْعَلْنَا إِلَهَنَا مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْقَوْلَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَاجْمَعْ بَيْنَنَا

(١) أخرجه البخاري (١١٨٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٣ / ٣٣٢)، وأبو داود (٣١٤١)، وصححه ابن عبد البر والبيهقي. التمهيد (٤٠٠ / ٢٤)، دلائل النبوة (٢٤٢ / ٧).

وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، لا نبغي بالإيمان بدلاً، ولا نشترى به ثمناً أبداً^(١).

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد رأت رؤيا فعرضتها على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أعبر الناس قالت: رأيت ثلاثة أقمار وقعن في حجرتي فقال: إن صدقت رؤياك، يدفن في بيتك من خير أهل الأرض ثلاثة، فلما قبض رسول الله ودُفن في حُجرتها قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا خير أقمارك يا عائشة^(٢).

يا خَيْرَ من دُفِنْتَ في القَاعِ أعظمُهُ فَطَابَ من طيِبَهِنِ القَاعِ والأَكَمُ
نَفْسِي الفِدَاءَ لِقَبْرِ أَنْتِ ساكنُهُ فِيهِ العَفَافُ وفيهِ الطُّهْرُ والكَرَمُ
وانْطَلَقَتْ قرائِح الصَّحَابَةِ تُسَطِّرُ عِظَمَ المِصْيبَةِ، وَجَلَالَةَ الخُطْبِ، وهولَ
الفَاجِعَةِ التي حَلَّتْ وَنَزَلَتْ بِهِمْ، ونَثَرُوا حُزْنَهم وألْمَهُم على فَقْدِ حَبِيبِهِمْ وقُرَّةِ
عُيُونِهِمْ، وبِهَجَّةِ صُدُورِهِمْ، فكان في مقدمتهم حَسَّانُ بن ثابت الذي طالما نثرَ
الشَّعْرَ في مَدْحِ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هَجَاءِ أعدائِهِ، فقام ومرارة المِصْيبَةِ
تكوي قلبَهُ وهو يقول:

بَطِيبَةً رَسَمٌ لِلرُّسُولِ ومَعَهْدٍ مُنِيرٌ وقد تَعَفُّو الرُّسُومَ وتَهْمُدُ
ولا تَنْمَحِي الآيَاتِ من دَارِ حُرْمَةٍ بِهَا مَنَبَرُ الهَادِي الذي كَانَ يَصْعَدُ
بِهَا حُجُرَاتُ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٩٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٥١)، قال الذهبي: مرسل ضعيف، لكنه حسن المتن. (١/ ٥٧٩)، وقال ابن كثير: وهذا الصنيع، وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه، أمر مجمع عليه لا خلاف فيه، وقد اختلف في تعليقه. البداية والنهاية (٨/ ١٣٤).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٤٨)، والحاكم في المستدرک (٣/ ٦٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وهذا سياقه، والأوسط، ورجال الكبير رجال الصحيح. مجمع الزوائد (٧/ ١٨٥).



فَبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرُّسُولِ وَبُورِكَتْ
تُهِيلَ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً
وَرَأَحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُهُمْ
يَبْكُونَ مِنْ تَبْكِي السَّمَوَاتِ يَوْمَهُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكٍ
بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدَ الْمَسَدُّ
عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ
عَشِيَّةَ عَالُوهِ الثَّرَى لَا يُوسَدُ
وَقَدْ وَهَنْتَ فِيهِمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ

وقال أخوه وابن عمه أبو سُفْيَانُ بن الحَارِثِ:

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ
وَأَرْقَنِي الْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتَنَا وَجَلَّتْ
فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا
وَلَيْلُ أَخِي الْمَصِيبَةِ فِيهِ طُولُ
أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ
عَشِيَّةَ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرُّسُولُ
يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرِئِيلُ

فَلَقَدْ كَانَ فَقْدُهُ وَوَفَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجَلُ مَصِيبَةٍ مَرَّتْ عَلَى تَارِيخِ الْأَرْضِ،
فَفَقَدَ الْعُلَمَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ وَالْكَبَرَاءُ، وَالْمَجَاهِدِينَ وَالْقَادَةَ، وَالِدُعَاةَ وَالْمُصْلِحِينَ،
لَا يَسَاوِي ذَرَّةً مِنْ ذَرَاتِ فَقْدِ الْحَبِيبِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَعْرَةً مِنْ شَعْرَاتِهِ، فَمَنْ
أُصِيبَ بِمَصِيبَةٍ بَعْدَهُ فَلْيَتَعَزَّ بِمَصَابِهِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ سَلَوُ لَهُ عَنْ كُلِّ مَصِيبَةٍ،
وَمَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ جَلَالِهِ الْقَدَرِ، وَعَظَمِ الْجَاهِ، وَنُفُوذِ الْيَدِ، فَقَدْ رَحَلَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا
كُلُّهَا وَدَرَعَهُ مَرْهُونَةً عِنْدَ يَهُودِيٍّ، فَلَمْ يَخْلَفْ قُصُورًا وَلَا أَمْوَالًا، وَلَا حَدَاقٍ،
وَلَا خَدَمَ، وَلَا تِجَارَةً، وَإِنَّمَا خَلَفَ شَرِيعَةً سَمَاوِيَّةً، وَسُنَّةً رَبَانِيَّةً، وَجِيلًا يَعْبُدُ
اللَّهُ وَيُوَحِّدُ اللَّهَ، وَيَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ، وَيَدْعُوا إِلَى اللَّهِ، وَيَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجَالًا
يَنْشُدُونَ الْمَجْدَ، وَيَطْلُبُونَ الْمَعَالِي، وَيُسَوِّسُونَ الْأُمَمَ، وَيَحْرَرُونَ مِنَ الرِّقِّ





والعُبودية لغير الله، وَيَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْعَدْلِ، وَيُقِيمُونَ الْقِسْطَ بَيْنَ النَّاسِ،
فَنَسْأَلُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي جَنَّتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَنَا مِمَّنْ يَنَالُ شَفَاعَتَهُ،
وَمِمَّنْ يَرُدُّ حَوْضَهُ، وَيَقْتَنِي أَثَرَهُ وَسُتَّهُ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



التصميم الداخلي للكتاب

Tharwat Sultan

TharwatSultan@yahoo.com

للتواصل : 00201019530152



﴿ فِهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ ﴾

الصفحة	الموضــــــــــــــــوع
٥	■ مقدمة
٧	■ بين يدي المقامات
٨	■ من مقامات النبوة
١٤	■ ميلاد الحياة
١٩	■ مقام الرسالة
٢٤	■ مضى عهد النوم
٣٧	■ رحلة النور
٤٢	■ العناية الإلهية
٤٩	■ مقام التربية
٥٨	■ ولحب مداد
٦٣	■ مقام الدعوة
٧٠	■ مقام الإقدام
٧٩	■ رحمة للعالمين
٨٥	■ دلائل النبوة
٨٨	■ أخرجني الجوع
٩٣	■ مقام التعب
٩٩	■ مقام الوفاء
١٠٥	■ مقام الشفاعة
١٠٩	■ ورحل الحبيب



مِرْمَقَاتُ الْحَيَاةِ النَّبَوِيَّةِ

يونس



تأليف
د. ناييف بن محمد اليحيى



17608

